كلمة الحق
في الاحتفال بمولد سيد الخلق

تأليف

الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود

رئيس المحاكم الشرعية والشؤون الدينية

بدولة قطر

هذا الكتاب هو رد على رسالة عنوانها « الاحتفال بذكر النعم واجب »
يشير إلى أن الاحتفال بالمولد النبوي واجب

كلمة الحـق
في الاحتفال بمولد سيد الخلق

تأليف

الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود

رئيس المحاكم الشرعية والشؤون الدينية

بدولة قطــر

هذا الكتاب هو رد على رسالة عنوانها « الاحتفال بذكر النعم واجب »
يشير إلى أن الاحتفال بالمولد النبوي واجب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وأشهد أن لا إله إلا الله ، شهادة مبرأة من كل قول واعتقاد لا يحبه الله ولا يرضاه . وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله الذي اصطفاه من بين خلقه واجتباه واختاره لحمل نبوته وتبليغ رسالته ، فأوحى إليه ما أوحاه ، اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل وعملوا بمقتضاه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فقد قدم إليّ أحد العلماء الكرام رسالة قد أبدى إنكاره لما تضمنته من الكلام وتحريف آيات القرآن ، وطلب مني بإيعاز من أهل بلدها بأن أعلق عليها ما عسى أن ينتفع به أهل الإسلام نصيحة لله وللخاص والعام .

وهذه الرسالة عنوانها « الاحتفال بذكر النعم واجب » ، وقد سمى مؤلفها نفسه بالعلامة السيد حامد المحضار .

فبعد التصفح مني لمبناها من مبدأها إلى منتهاها والوقوف على حقيقة مغزاها ومعناها ، تبين لي بطريق الوضوح بأنها دعاية سافرة إلى وجوب الاحتفال بالمولد النبوي ، وكان اعتماده واستناده في تأييد هذه البدعة بدعة أخرى قد اخترعها بنفسه ، بدون أن يسبقه إلى القول بها أحد من علماء المسلمين ، وهي بدعة الاحتفال بالنعم ، وأنه واجب ، فاستدل للبدعة ببدعة وللمنكر بمنكر وزور ، فعلى من سنها وزر من عمل بها إلى يوم الحشر والنشور .

ثم أخذ يركب في سبيل تعلية باطله وتحلية عاطله فنوناً من التضليل والتعاسيف في التأويل والاستدلال بما ليس له فيه دليل والزيغ عن سواء السبيل .

ويدل فحوى كلامه على نقص علمه وقصور رأيه وفهمه ، وأنه حائر مبهوت يتمسك في استدلاله بما هو أوهى من سلك العنكبوت ، وبما أنه يخشى أن ينخدع بهذه التسمية بعض العوام وضعفة العقول والأفهام ، فيظنونها حقاً وهي بالحقيقة باطل ، أحببت أن أبين ما تحت هذه للكلمة من الضـلال وسوء الاعتقاد في الأقوال ، فإن غايتها الضلال ، وأنه بهذا العنوان قد طبع رسالته بطابع البطلان ، حيث سمى الاحتفال بالنعم واجب على الناس ، وهي بدعة منه ولم نر من سبقه إلى القول به « قل فأتوا بكتاب من قبل هـذا أو إثارة من علم إن كنتم صادقين » ، وينبغي أن نفهم معنى هذا الاحتفال الذي حكم بوجوبه على الناس لغة وعرفاً ، إذ الواجب هو ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه ، قال في القاموس : الاحتفال ، الاجتماع مأخوذ من حفل القوم واحتفلوا إذا اجتمعوا واحتشدوا ، ومحفل القوم ومحتفلهم مجتمعهم ، وفي الصحاح بمعنى ذلك .

فقوله : إن الاحتفال بالنعم واجب ، هو بدلا من القول وزور وليس له مستند من المأثور ، ولم يقل به عالم مشهور ، فإن نعم الله على العباد كثيرة « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ، فلو أن كل نعمة ينعم الله بها على عباده يجب الاحتفال لها لعطل الناس منافعهم ومتاجرهم وبيعهم وشرائهم في سبيل الاحتفال لكل نعمة فتنقلب النعم في حقهم نقم .

وإنما الواجب الشكر عند حلول النعم وزوال النقم ، والشكر هو الاعتراف بالنعمة باطناً والتحدث بها ظاهراً ، وصرفها في مرضاة وليها ومسديها ، وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — إذا جاءه أمر يسر به خرّ ساجداً شكراً لله على ذلك . فمتى أنعم الله على العبد بالصحة والعافية فمن واجبه أن يستعمل صحته في طاعة ربه والمحافظة على أداء واجباته من صلاته وصيامه وسائر ما خلق لأجله ، مع مراعاة ما ينفعه في دنياه من وسائل الكسب وسعة الرزق وطلب الحلال المباح ومن كل ما لا يضر بدينه ، فإن هذا من واجبات عمله ويدخل في عموم شكر صحته ، وإذا أنعم الله عليه بالغنى بالمال ، فمن واجبه أن يقوم

بأداء زكاته وصلة أقاربه والنفقة في وجوه البر والخير الذي خلق لأجله ، فإن هذا هو عنوان شكر النعم المستلزم لنموها وبركتها وثباتها « وإذ تأذن ربكم لإن شكرتم لأزيدنكم ولإن كفرتم إن عذابي لشديد » ، وإذا أنعم الله على الإنسان بالعلم وبالذكاء والفطنة والمعرفة ، وجب عليه أن يصرف هذا العلم في سبيل ما ينفع الناس من اتباع السنن واجتناب البدع ، بدلا من أن يشوّق الناس إلى مثل هذه البدع بالدلائل البعيدة في سبيل تأييده وتمهيده لها .

إن من طبيعة البدعة على اختلاف أنواعها التمدد والتفجر ، ثم التنقل من بلد إلى بلد على سبيل العدوى والتقليد الأعمى ، لحيث أنها تبتدئ بالأفراد على سبيل الاستحسان ، ثم بالجماعات ، ثم تقود إلى ما هو شر منها ، بحيث تكون الآخرة شر من الأولى ، وتكون كل عام شر من الذي قبله ، ثم ينشأ عن البدعة فنون من البدع تقود إلى ما هو شر منها ، كما رأيت من فعل هذا الكاتب ، حيث حمله تعصبه على تأييد بدعة الاحتفال بالمولد النبوي إلى القول منه : بالاحتفال بالنعم وهي بدعة جديدة لم نر من سبقه إلى القول بها ، وقد استباح تحريف القرآن وصرفه عن المعنى المراد منه في سبيل إثبات هذه البدع بالدلائل البعيدة في سبيل تأييده وتمهيده .

وقد قال العلماء : أنه ما ظهر بدعة إلا رفع مقابلتها من السنة ، فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة .

وأكثر ما يفسد الإسلام زلة العالم وجدال المنافق بالقرآن وحكم الأئمة المضلين ، كما قال عمر بن الخطاب.

ولولا من يقيمه الله من العلماء الصالحين لدفع ضرر الملحدين ودحض حجج المبطلين لفسد الدين ، ولكن الله سبحانه بفضله ورحمته لا يزال يغرس لهذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته ، ينفون عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

وهذا الاحتفال بالمولد الذي يبالغ الكاتب في تحسينه وتأييده ، يفحش في مكان دون مكان وزمان بعد زمان ، حتى أشيع في بعض البلدان أن من لم يحضر المولد فإنه كافر ، وأن من لم يقم عند ذكر الرسول فليس بمسلم ، وهذا من فنون تنوع البدع ، وكل بلد لا يؤمر فيها بالمعروف ولا ينهى فيها عن المنكر ، وليس فيها رقابة دينية تمنع محدثات الأمور والبدع ، فإن من اللازم أن تنشأ فيها فنون من البدع والمذاهب الهدامة من كل ما يزيغ الناس عن معتقدهم الصحيح ويقودهم إلى الإلحاد والتعطيل لعدم ما يمنع إنشاء هذه الأشياء من أصلها ، لأن إنكارها هو مما يقلل فشوها وانتشارها ، « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ».

ومبنى الشريعة على حماية الدين والأنفس والأموال والعقول والأعراض فهي قائمة على جلب المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد وتقليلها .

أما الاحتفال بالنعم أو بميلاد النبي أو بالإسراء به ، فإنها كلها من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ، فهي من محدثات الأمور التي نهى عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال : « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » لكون البدعة في اللغة هي الزيادة في الدين بعد كماله ، وفسرت بأنها ما فعل على سبيل القربة مما لم يكن له أصل في الشرع ، وهذا الوصف منطبق على الاحتفال بالمولد أو الإسراء أو الاحتفال للنعم .

وأكثر من يشيدها وينشطها هم العلماء القاصرة أفهامهم والناقصة علومهم مما يجعـل العامة يغترون بهم وينعبثون على أثرهم ، وباستمرار فعلهم لها خاصة في هذا اليوم المعين يستقر في نفوسهم فضلها أو فرضها ، والعامي مشتق من العمى ، وقد قيل « ويل للعامة من علماء السوء » ، وقد وصف علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – العامة ، فقال : « إن أكثر الناس همج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا من الدين إلى ركن وثيق أقرب شبهاً بهم الأنعام السائبة ، اللهم بل لا تخلو الأرض من قائم

لله بحجة لكيلا تبطل حجج الله على عباده أولئك الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، يقيم الله بهم حججه على عباده حتى يؤدوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم » انتهى . وشبهوا غلط العالم بغرق السفينة ، يغرق بغرقها الخلق الكثير ، وقد وصف النبي – صلى الله عليه وسلم – طريق الهدى وطرق الضلال ، وأن على كل طريق من طرق الضلال شيطان يدعو إلى بدعتة . وروى الإمام أحمد والنسائي عن ابن مسعود ، قال : خط رسول الله خطاً مستقيماً فقال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه سبل على كل سبيل شيطان ، ثم قرأ : « وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، وقد سمع من بعض العلماء المضلين في محفل محشود ومجمع مشهود عقد لذكرى مولد الرسول ، فقال للحاضرين : إن من لم يقم عند ذكر الرسول فليس بمسلم ، فلينظر العاقل إلى هذه الكلمة التي طاش بها عقله وهواه فجعل فيها الحق باطلا والباطل حقاً ، وقد قيل :

وعبـــادة الأهواء في تطويحهـــا بالدين فوق عبـــادة الأصنـــام

وقد قال أنس بن مالك : أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله وكانوا لا يقومون إذا رأوه ، لما يعلمون من كراهته لذلك ، بل يجلس حيث ينتهي به المجلس وهذه سنة رسول الله وسيرة أصحابه في حياته ، فما بالك بذلك بعد موته ، وما هو إلا محض الغلو الذي نهى عنه ، وروى أبو داود ، بسند جيد عن عبد الله بن الشخير ، قال : انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقلنا : أنت سيدنا ، فقال السيد الله – تبارك وتعالى – فقلنا : وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا . فقال : « قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان . »

وعن أنس – رضي الله عنه – أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا . فقال : « يا أيها الناس قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبده ورسوله وما أحب أن ترفعوني

فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل » رواه النسائي بسند جيد « ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

فالرسول حما حمى التوحيد وسد طرق البدع والغلو فيه بالإطناب بالمدح بالشعر أو النثر ، لكون الإطناب بالمدح ليس من هديه ، وقد ورد النهي الشديد عنه وكذلك الصحابة من بعده بالغوا في حماية الدين وسد طرق البدع ، لكون البدع بريد الشرك ، وأول ما دخل الشرك على الناس هو بسبب الغلو في الأنبياء والصالحين ، حتى صيروا قبورهم أوثاناً يعبدونها ، ولما رأى عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أناساً يتسللون لواذاً جماعة وفرادى إلى شجرة ، قال : ما هؤلاء يذهبون ؟ قالوا : يذهبون إلى الشجرة التي بايع النبي — صلى الله عليه وسلم — الصحابة تحتها ويصلون فيها . فقال عمر : اقطعوها ، فإنما هلك من كان قبلكم بتتبعهم آثار أنبياءهم ، حتى جعلوا آثارهم معابد ، فأمر بقطعها ، فقطعت فكان آخر العهد بها ، فرحم الله عمر الفاروق ، فإنه لو ترك هذه الشجرة بحالها لصارت وثناً يعبد من دون الله ، بدعوى محبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما سنوا بدعة المولد والإسراء ، بدعوى محبة رسول الله .

لكون البدع كبدعة المولد وغيرها تبدأ بالأفراد ، ثم تشتهر وتنتشر بالجماعات ، فتنتقل من بلد إلى بلد ، لكون الناس يقلد بعضهم بعضاً في الخير والشر وفي نفوس الناس قبول للباطل ، بحيث تألفه ويتمركز فيها محبته ، وقد حفت النار بالشهوات ، كما حفت الجنة بالمكاره .

وكان أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمثابة الحماة دون دخول البدع على الدين ، لأن كل بدعة تحدث ، فإنه يرفع مقابلتها من السنة فاقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة ، فمن ذلك ما روى الدارمي ، قال : أخبرنا الحكم بن مبارك ، أنبأنا عمر بن يحيى ، قال : سمعت أبي يحدث عن أبيه ، قال : كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة ، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد ، فجاءنا أبو موسى الأشعري ، فقال : أخرج

أبو عبد الرحمن ؟ قلنا : لا ، فجلس معنا فلما خرج ابن مسعود ، قال له أبو موسى : يا أبا عبد الرحمن ، إني رأيت في المسجد أمراً أنكرته . قال : فما هو ؟ قال : إن عشت فستراه . قال : رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصاً ، فيقول كبروا مائة فيكبرون مائة ، ويقول : هللوا مائة ، فيهللون مائة ، ويقول : سبحوا مائة فيسبحون مائة . قال : فماذا قلت لهم ؟ قال : ما قلت لهم شيئاً أنتظر أمرك . قال : أفلا أمرتهم أن يحصوا سيئاتهم وضمنت لهم بأن لا يضيع شيء من حسناتهم . ثم مضى ووقف عليهم ، فقال : يا أمة محمد ، ما أسرع هلكتكم هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون والذي نفسي بيده إنكم مفتتحوا باب ضلالة . قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير . فقال : وكم من مريد للخير لم يصبه أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حدثنا أن قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، وأيم الله لعل أكثرهم منكم . قال عمر بن سلمة : لقد رأينا عامة أولئك يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج ، انتهى .

ولن تجد أفصح ولا أنصح من رسول الله في إنذاره وتحذيره عن البدع . فقال جابر بن عبد الله : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا خطبنا احمرت عيناه واشتد غضبه وعلا صوته ، كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ويقول : إن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدي محمد — صلى الله عليه وسلم — وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

رجعنا إلى مناقشة صاحب الرسالة على علاته ووضوح زلاته ويظهر أنه متعصب في الجهالة ، غير عارف بحقائق الدلالة ، مع ما به من الغرور على مساويء أقواله ، فتراه يقول (إنك حين تقرأ هذه الرسالة باستيعاب يحملك على أن تحسب لكاتبها ألف حساب وتوقن أنك أمام فكر عميق وسيولة في التحقيق والتدقيق) .

فالجواب أن نقول : إنه لما نشر هذا الإعلان لإعلام الخاص والعام ، بأن لديه الفكر العميق وسيولة علم في التحقيق والتدقيق ، أصغينا إليه الآذان وأفرغنا له الأذهان ، وتتبعنا ما عسى أن يورده من عميق الفكر والبيان والدليل والبرهان ، فنتبعه على الرغم منا والإذعان ، لأن واجب المسلم قبول الحق والانقياد له ، لكننا لما بحرنا عميق فكره وجدناه سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، وأنه من بعد تتبعنا لهذه الرسالة والوقوف على حقيقة ما تقتضيه من الدلالة وجدناها أضغاث أحلام ولم توف بشيء من حقيقة البيان أو الدليل والبرهان ، ومن ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان .

سبكناه ونحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

إنه لم يأت على صحة ما يقول بدليل صحيح من المنقول أو المعقول ، ولم يأت بقول أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من علماء المسلمين .

وإنما رمى بهذه الكلمة على سبيل الغرور والجزاف غير موزونة بمعيار الصحة والصدق والإنصاف ، ثم أخذ يركب لتحقيقها التعاسيف في الصدور والورود ، ويستدل لها بما يعد بعيداً عن المقصود ، ديدن الحائر المبهوت ، يتمسك في استدلاله بما هو أوهى من سلك العنكبوت .

أقام يعمل أياماً رويته فشبه الماء بعد الجهد بالماء

ثم قال : (أن كثيراً من أئمة علماء الإسلام من الحفاظ والفقهاء وأصحاب السير كتبوا عن المولد النبوي وما سبقه من الإرهاصات وما ترتب عليه من البركات ، مما يحتاج كل قادر على التأسي بهم في هذا الميدان) .

فالجواب : أن هذا حق وقد أراد به الباطل ، فإن كل متصد للدعوة إلى الباطل فإنه يقدم أمام دعوته من الترويج بالحق ما يستدعي ستر الباطل تحته وقبوله معه لكون الناس لا يقبلون الباطل المحض ، وإنما يقبلونه إذا كان ملبوساً بحق ، قال الله تعالى : « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » ، فلبس الحق بالباطل هو تغطيته به ، بحيث يظهر للناس أنه

حق وهو في الحقيقة باطل ، ومن لوازم هذا اللبس كتمان الحق وعدم بيانه ، لعلمه أنه لو بيّن الحق لم يتم مقصوده في تنفيذ الباطل ، وهذا كله منطبق على تصرف هذا الكاتب وإن سمى نفسه بالإمام العلامة ، فكان فيه حظ وافر ونصيب كبير من قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وإن الله ليس بظلام للعبيد » .

فأخبر الله سبحانه ، أن من الناس من يجادل في الله بغير علم نقلي يرشده إلى التحقيق ولا هدى عقلي يهتدي به لسلوك أقوم طريق ولا كتاب منير ينقل منه ويقتدي به ، بل هو مسلوب الرواية والدراية ومصروف عن الهداية ثاني عطفه : أي متكبر عن قول الحق وقبوله ليضل الناس عنه ، فجمع بين الضلال والإضلال ، ثم إن أكثر علماء الإسلام والحفاظ وأهل السير كتبوا في مولد رسول الله وبينوا حمل أمه آمنة بنت وهب به وذكروا ولادته ورضاعه ، وخروجه رضيعاً إلى الصحراء مع مرضعته حليمة السعدية كسائر أولاد قريش لكونهم يستمجدون رضاع نساء البوادي لأولادهم ، وذكروا نشأته وحضانة عمه أبي طالب له ، ومبدأ نبوته وحماية أبي طالب له ودخوله مع عمه في الشعب ومعارضة قومه لدعوته ، كل هذا يكتبونه ويقرأونه في المساجد وفي المدارس وفي المجالس وفي كل الحالات وسائر الأوقات بعقل وأدب واحترام ، لا يقصدون بكتابتهم تشييد أو تنشيط هذه الاجتماعات والاحتفالات التي أحدثها الناس ، فإن علماء السلف متفقون على أنها من محدثات الأمور التي نهى عنها رسول الله أشد النهي ، لكونها محدثة في الدين وتقود إلى ما هو شر منها ، فإن البدع بريد الكفر ، وحسبك أنه قد شاع في بعض البلدان أن من لم يحضر المولد فإنه كافر ومن لم يقم عند ذكر ولادته فإنه كافر . فكل هذا وأمثاله نتيجة هذه البدعة .

وإنما يقصدون في ذكر مولده الاحتفاظ بتاريخه ، إذ هو نبي الرّحمة ، ولم نجد في شيء من الكتب المعتمدة القول باستحباب التجمع والاحتفال بمولده

ولا في اليوم الذي أسرى به ، ولم نجد من علماء المسلمين المتقدمين والمتأخرين من يقول : أن الاحتفال بالنعم واجب كما يقوله هذا الكاتب « قل فأتوا بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم إن كنتم صادقين » ، ثم قال : (وهذا أوان الشروع في مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي وتأييده بالأدلة العقلية والنقلية والاجتماعية بما لم يسبق له مثيل ، وذلك أن ميلاد محمد — صلوات الله وسلامه عليه — نعمة وكذلك ميلاد أنبياء الله وحملة رسالاته ، ولقد نوه القرآن بميلاد مريم وابنها ونوّه بميلاد يحيى بن زكريا ولقد احتفل القرآن بميلادهم وإليك بعض الآيات التي احتفلت بميلاد من سبق ذكرهم — ثم ساق في استدلاله صدر سورة آل عمران وبعض آيات من صدر سورة المائدة) انتهى كلامه .

فالجواب : أن نقول أن كل ما ذكره من الأدلة العقلية والنقلية والاجتماعية في مشروعية الاحتفال بالنعم ، فكله من الكذب المكشوف المفترى على الله وعلى كتابه ودينه ، قصد به نصر رأيه وإعلاء كلمته واستباح لأجله صرف القرآن عن المعنى المراد به بتحريفه عن مواضعه ، فكان كما قيل :

لا وافـــق الحكم المحـــل ولا   هو استوفى الشروط فكان ذا بطلان

وأن هذه الآيات التي سردها والأقوال التي أسندها واستدل بها ، كلها خارجة عن موضوع البحث الذي يريد تأييده ، فلا يتعلق به بصلة ، ولكنه مزجى البضاعة من معرفة الصناعة ، إذ موضوع البحث مشروعية الاحتفال بمولد الرسول وبمولد سائر الأنبياء ، وبما أن الاحتفال هو التجمع والتحشد ، ولا أدري من أين أخذ وقوع هذا الاحتفال بمريم وعيسى ويحيى بن زكريا ، وأين مكانه ومتى زمانه ، وهل وقع في السماء من الرب مع ملائكته أو في الأرض ، وأين الدليل الشرعي في صحته ومكانه ولكنه بجهله العريق وجفائه العميق يوهم الناس أن الاحتفال بمولد الرسول أنه مجمع عليه بالمعقول والمنقول وهو كذب وزور ، فكل العلماء المحققين بريئون مما يقول ، فهو بجهله لا يفرق بين المشروع وغير المشروع ولا بين ما فعل للعادة أو للعبادة .

وقد قيل : أن أفضل الكلام ما جلى الحقائق وهدى لأقوم الطرائق ، وهذا الكاتب قد اعتاد إلقاء مثل هذه الجمل من كيس نفسه على سبيل الخرص والجزاف غير موزونة بميزان الصحة والإنصاف ، لأنه قد صرف جل عقله وعمله واهتمامه إلى تأييد رأيه والتمويه على الناس بصحته وهو باطل من أصله ولم يورد حرفاً واحداً لصحته ، وكأنه يملي كتابه على قطيع من البقر لا على علماء من نقاد البشر ، الذين يعرفون المعروف وينكرون المنكر والحمد لله الذي جعل في كل زمان بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويبصرون بنور الله أهل العمى ، إذ لولا من يقيمه الله لحماية الدين ودحض شبه الملحدين ودفع بدع المبتدعين لفسد الدين .

والمقصود أن بركة الرسول على أمته لا تعد ولا تحصى ، وأنه رحمة للعالمين وحجة على الخلق أجمعين ، وقد امتن الله ببعثته على المؤمنين ، فقال : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة .

ولما قسم رسول الله غنائم حنين وأعطى المؤلفة كل واحد مائة من الإبل فوقع في نفس الأنصار شيء من ذلك وقالوا : يعطي غنائمنا صناديد العرب ، ويدعنا فسمع رسول الله بخبرهم فجمعهم ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي ، ومتفرقين فجمعكم الله بي ، وفي كل كلمة يقولون الله ورسوله أمن ، ثم قال : ألا ترضون أن ينصرف الناس بالمال وتنصرفون برسول الله إلى رحالكم . قالوا : قد رضينا ، قد رضينا » وسيأتي الكلام على هذه الآية فيما بعد إن نشاء الله .

إن رسول الله ﷺ لم يطلب من أمته على هدايته ودعوته منة ولا على عمله مكافأة وأجرا إلا بالدعاء وكثرة الصلاة والتسليم عليه ثم بمتابعته بامتثال أمره واجتناب نهيه ، لقوله — صلى الله عليه وسلم — : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى

قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى »، وأن لا يعبدوا الله إلا بما شرع لا بمجرد الاستحسان والبدع ، يقول الله « قل لا أسألكم عليه أجراً وما أنا من المتكلفين ، إن أنا إلا نذير مبين » فليس من شأن الرسول ولا من هديه الإطراء والمبالغة في مدحه بشعر شوقي أو غيره ، بل هذا من منهياته ، فقد قال – صلى الله عليه وسلم – : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » . رواه البخاري ومسلم . والإطراء هو مجاوزة الحد في المدح والثناء ، وقد قدمنا قول عبد الله بن الشخير ، لما قدم في وفد بني عامر ، فقالوا : أنت سيدنا وأفضلنا ، فقال : قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله . مع العلم أنه سيد الأولين والآخرين على الإطلاق ، وأنه أفضل الناس على الإطلاق ، ومع هذا قال : « لا تفضلوني على الأنبياء » ، كله حرص منه – صلى الله عليه وسلم – على حفظ أصل الدين لئلا يتجارى بهم الهوى في حبه إلى الغلو الذي نهى عنه بقوله : « إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» لأنها إنما عبدت قبور الأنبياء بالغلو في محبتهم .

فهذا قوله في حياته وينطبق على حالته بعد وفاته ، لأن ما كرهه في حياته فإنه يكره بعد وفاته ، كما كره العلماء رفع الصوت عند قبره .

وقد بالغ هذا الكاتب في مدح شوقي ، على شعره ورفع عقيرته بمدحه ، لحيث أنه قد وافق هواه في الإطراء ، ومتى جاء سيل الله بطل نهر معقل ، ثم قال :

(قد يعترض معترض ويقول قائل : أنه ليس فيما ذكرتموه سابقاً دليل ناصع على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي على النحو المعروف .

ونحن نقول : إن هذا الاعتراض لا يصلح رداً لمشروعية الاحتفال بنعم الله ومنها ميلاد محمد – عليه الصلاة والسلام –) .

والجواب : أن من عادة الله في خلقه أن كل من أسر سريرة أو استبطن عقيدة ، فإن الله سبحانه يظهر سر عمله وعقيدته على فلتات خطابه وصفحات كتابه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، لأن كل إناء ينضح بما فيه وعادم الخير لا يعطيه ، قال تعالى « ذلك ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول » وهذا الكاتب قد اعترف على نفسه بما عسى أن يقول الناس فيه بأنه ليس فيما يورده دليل صحيح على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي لا من القرآن ولا من قول الرسول ولا من قول أحد من الصحابة والتابعين ولا من أئمة المذاهب ، فهذا مجرد اعترافه على نفسه وهو واقع والناس صادقون فيما يقولون ، فمن العناء العظيم استيلاد العقيم والاستشفاء بالسقيم ، فما أبعد البرء من طبيب داءه من دوائه وعلته من حميته ، بل ثبت عن رسول الله ما يدل على صريح النهي عنه حيث قال « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة » وهذا من محدثات الأمور بإجماع علماء المسلمين وإن سماه من سماه بدعة حسنة ، فليس في الشرع بدعة حسنة ، بل كل بدعة سيئة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، ثم إنه حاول الفرار من هذه البدعة إلى بدعة أخرى وهي أشنع منها وهي بدعة الاحتفال بالنعم ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فإن استدلاله بالاحتفال بالنعم هو استدلال فاسد بالنص والقياس ولن يقول أحد ممن يحتج به أنها سنة أو بدعة حسنة ، وحسبنا شهـــادته على نفسه بأنه ليس فيما يورده دليل صحيح على مشروعية هذا ولا ذاك ، فكان كالتي نقضت غزلها من بعد قوة إنكاثاً وغايته أنه يتقلب مع الأهواء ويخبط خبط عشواء والعالم النحرير والمفكر البصير إنما يستدل بالدلائل المنقولة والمعقولة مما يشهد علماء المسلمين بصحته ، لأنها أوقع في القلوب وأليق بالقبول ، لأن العلماء يحاربون البدع بالسنة ، أما القول الخارج عن معيار الصحة من سائر أقوال الناس ، فإن كل أحد يقدر على رده والمقابلة بضـده ، فيكون استدلال بدعة ببدعة يزداد بها الطين بله .

وإذا استشفيت من داء بداء   فأكثر ما أعلك ما شـفاك ..

إنه متى ساء الفهم ساءت النتيجة ، وإذا ساءت النتيجة فسدت الغاية ، لقد رأينا هذا الكاتب — هداه الله — لما تقحم الخوض في موضع سنية الاحتفال بالمولد النبوي وجعله بدعة حسنة ، ولم يجد دليلا واضحاً يؤيده ولا نصاً صريحاً يسنده . اضطره انتصاره لهذه البدعة إلى بدعة أخـــرى قد سنها بنفسه ابتداء ولم نعلم من سبقه إلى القول بها وهي الاحتفال بالنعم ، ثم استباح في تأييدهما صرف القرآن عن مواضعه إلى غير المعنى المراد منه ، ليقيم من ذلك حجة على الاحتفال بالنعم والاحتفال بالمولد النبوي ، فأكثر في سبيل ذلك من الصدر والورود والاستدلال بما يعد بعيداً عن المقصود ، ديدن الحائر المبهوت يتمسك في استدلاله بما هو أوهى من سلك العنكبوت ، ويظهر أنه مزجى البضاعة من هذه الصناعة ، فليس للشريعة معظماً ولا للقرآن محترماً ولا للحديث موقراً ، فانظر إلى كلامه في سائر كتابه تجده لا طالب أثر ولا متبع خبر ولا مناضلا عن سنة ولا راغباً أو مرغباً في أسوة حسنة ، يتلعب بالقرآن العظيم ويحاول أن يجعل منه أمثالا للبدع السيئة ليخدع بها العوام وضعفة العقول والأفهام .

وإذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في لبـــاس صديق

ثم قال : (ولدينا دليل آخر مدني أنصاري نقله إمام السنة أحمد بن حنبل وحكاه عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، قال أحمد : ثبت أن الأنصار قبل قدوم رسول الله قالوا : لو نظرنا يوماً فاجتمعنا وذكرنا هذا الأمر الذي أنعم الله به علينا ، فقالوا : يوم السبت . فقالوا : لانجامع اليهود في يومهم . قالوا : الأحد . قالوا : لا نجامع النصارى في يومهم . قالوا : فيوم العروبة ، وكانوا يسمون يوم الجمعة يوم العروبة ، فاجتمعوا في بيت أبي أمامة أسعد بن زرارة ، فذبح لهم شاة فكفتهم) . انتهى .

فالجواب : أننا بحمد الله نؤمن بالكتاب كله من كل ما ثبت عن الله ورسوله ، ولسنا ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، وهذا الذي ذكره من اجتماع الأنصار يطالبون بيوم يجتمعون

فيه لعبادة ربهم هو صحيح كما وصف ، وأما صلاتهم الجمعة ، فإنما وقع بأمر من النبي — صلى الله عليه وسلم — لما تتابع المهاجرون إلى المدينة ، أمر مصعب بن عمير ، بأن يصلي بهم الجمعة ويترجح أنها فرضت الجمعة مع فرض سائر الصلوات ، والله سبحانه قد افترض الصلوات الخمس وآكدها صلاة الجمعة والتي هي عيد الأسبوع والتي هي أفضل من عيد الأضحى وعيد الفطر ، فاختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة ، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا ، فهدانا ليوم الجمعة، نحن الآخرون السابقون » . وفي رواية « بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، فهدانا الله له » فافترضت الجمعة على النبي— صلى الله عليه وسلم — بمكة كسائر الصلوات الخمس ، لكنه لم يتمكن من إقامتها بمكة من أجل أن المشركين يمنعونه من ذلك ، ولمّا هاجر بعض أصحابه إلى المدينة أمر النبي — صلى الله عليه وسلم — مصعب بن عمير بأن يصلي الجمعة بالناس .

قال عبد الرحمن بن كعب ، وكان قائد أبيه بعد ما عمي ، قال : كان أبي إذا سمع أذان الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة ، فقلت : يا أبت إنك إذا سمعت أذان الجمعة ترحمت لأسعد بن زرارة . قال : نعم أي بني إنه أول من جمع بنا في حرة بني بياضة في نقيع الخضمات فذبح لنا شاة فتغدينا عنده ، قلت : كم كنتم ؟ قال : كنا أربعين . رواه أبو داود وابن ماجه .

وقد استدل به من اشترط لصحة الجمعة حضور أربعين من أهل وجوبها وليس فيه دليل قاطع على اشتراط هذا العدد ، لأنها قضيت حال وافق كونهم أربعين بدون تحديد لهذا العــــدد منه — عليه الصلاة والسلام — والصحيح أن الجمعة تصح ولو بدون أربعين ولو بدون اثني عشر من أهل وجوبها ومن غيرهم.

أما أول جمعة صلاها النبي – صلى الله عليه وسلم – مباشرة منه ، فهي في مسجد بني عبد الأشهل بالمدينة ، حين قدم مهاجراً فوافق قدومه يوم الجمعة فنزل على أبي أيوب الأنصاري ، فصلى بالناس .

وسميت جمعة ، لأنها مشتقة من الجمع ، وأن أهل الإسلام يجتمعون فيها في كل أسبوع مرة يتفرغون فيها لعبادة ربهم ، وأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ، لهذا حرّم الفقهاء تعدد الجمع لغير ضرورة ، والنبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا على أربعة : مملوك وامرأة وصبي ومريض » . رواه أبو داود من حديث طارق بن شهاب ، وقال : لم يسمع طارق من النبي ، ورواه الحاكم عن طارق عن أبي موسى ، وهذا الاجتماع هو مشروع بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وقد تواترت الأحاديث الكثيرة في فضلها والمحافظة على فعلها والوعيد الشديد في تركها ، فروى مسلم عن ابن عمر ، قال : سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول على أعواد منبره : « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » فلا يقاس هذا الاجتماع المشروع على الاجتماع للمولد الذي ليس له أصل من الكتاب ولا من السنة ولا من فعل الصحابة والتابعين ولم يقل بمشروعيته أحد من أئمة المذاهب ، ويترتب عليه مفاسد كثيرة فكيف يقاس على يوم الجمعة الذي يجتمع فيه المسلمون لعبادة ربهم ، منهم المصلي ومنهم التالي للقرآن ومنهم المسبح والمستغفر ، وإذا قام الخطيب يذكرهم استمعوا له وأنصتوا ، ولهذا كره للرجل أن يتخطى رقاب الناس وأن يتكلم والإمام يخطب ، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، أو من قال لصاحبه : أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له ، والجمعة الصحيحة تكفر ما بينها وبين الجمعة الأخرى ، وفضل ثلاثة أيام ، فهذا الاجتماع بهذه الصفة هو شرع الله الحكيم ودينه القويم الذي قال الله فيه : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » . أما الاجتماع للاحتفال بمولد الرسول أو الإسراء

والمعراج أو الاحتفال بالنعم ، فإنه من شريعة المخلوقين ، أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فكيف يقاس شرع الله الحكيم بشريعة المخلوقين الذي قام بتشريعه علماء الضلال فتبعهم العامة عليه ، لظنهم أنه دين وحق وهو باطل في نفس الأمر والواقع إذ لو كان خيراً لسبقونا إليه ، ثم إن أكثر هؤلاء يخدعون العوام ويغشونهم ويلبسون عليهم باسم الدين فيجعلون لهم الباطل حقاً والبدعة سنة ، بسبب ما يترتب على هذا الاحتفال من المآكل الشهية ، كما يقول هذا بأنه مشروع بالأدلة العقلية والنقلية والاجتماعية ، ثم يقيسه على اجتماع الناس للجمعة والعيد ويجعل صوم النبي يوم عاشوراء ، حيث أنجى الله فيه موسى وقومه أنه من الاحتفال بالنعم ، وكذا صوم النبي للاثنين الذي ولد فيه أنه من الاحتفال بالنعم ، فياسبحان الله ، متى كان الاحتفال بالنعم مشروعاً وفي أي كتاب وجده أو أي عالم قال به ، وإذا كان الاحتفال هو التجمع ومحفل القوم مجتمعهم ، فأين هذا من ذاك وكأنه يملي كتابه من تفكير منامه ، لا من عقله ، يقول الله : « وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله » ، وكل قول لا دليل عليه يقدر كل أحد على رده ، والمقابلة بضده ، والعامي بلا شك ينخدع بمثل هذه الأقوال ويعتقد مشروعيته بالقرآن ، سيما إذا نمقه قائله بزخرف القول وخداع الألفاظ ، بحيث تروج صحته في أذهان العوام وضعفة العقول والأفهام . كما قيل :

في زخرف القول تزيين لباطله	والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه	وإن تشأ قلت هذا قيء الزنابير
مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما	والحق قد يعتريه سوء تعبير

ثم قال : (إن حديث كل « بدعة ضلالة » معارض أو مخصص بحديث أوضح منه وأكثر طرقاً وهو حديث « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر

من عمل بها إلى يوم القيامة » . رواه مسلم من حديث جرير بن عبد الله) .

فالجواب أن نقول : لقد عرف هذا الكاتب أن عملهم في الاحتفال بمولد الرسول ، أنه بدعة لكنه أراد أن يزيل اسم هذه البدعة بحديث من سن في الإسلام سنة حسنة إلى آخره ، فمتى تحقق أنه بدعة حسبما شهد به على نفسه فإن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « كل بدعة ضلالة وهي نكرة مضافة تعم كل بدعة ، فليس في الشرع بدعة حسنة ، بل إن البدعة تنافي السنة وتنافي الحسنة وكل بدعة سيئة ولو كان عند هؤلاء محبة صحيحة للرسول لاتبعوا أمره واجتنبوا نهيه ، وحيث تقرر عنده أنها لم تكن معروفة زمن النبي — صلى الله عليه وسلم — ولا زمن أصحابه ، فإنها تعتبر زيادة في الدين « أم لهم شركاء شر عوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » .

والبدعة هي ما فعل على سبيل القربة مما لم يكن له أصل في الشرع ، فهي زيادة في الدين بعد تمامه ، وهي بدع من القول وزور ، وقد قيل : اتبعوا ولا تبتدعوا ، قالوا : كل عبادة لم يتعبدها رسـول الله ولا أصحابه ، فلا تتعبدوها ، فإن الأول لم يترك للآخر مقالا فيما يتعلق بشأن العبادة والقرب الدينية .

وكل خير في اتباع من سلف ... وكل شر في ابتداع من خلف

فالبدعة الحسنة إنما تكون في العادات لا العبادات ، ثم قال :

(إن الاحتفال بالمولد النبوي إنما يكون بذكر الله والصلاة على رسول الله وذكر سيرته وفضله وبإطعام الطعام وإفشاء السلام والتقاء الإخوان على رياض جنة الذكر) .

فالجواب أن نقول : إن كل بدعة على اختلاف أنواعها ، فإن طبيعتها التمدد من الذكر إلى فنون من المنكر ، لأن البدع بريد الكفر ورب مريد للخير لا يدركه وإنما حذر النبي — صلى الله عليه وسلم — عنها وحرص الصحابة على

إزالتها ، حيث قطع عمر بن الخطاب الشجرة التي كانوا يصلون تحتها ويقولون أن النبي بايع الصحابة تحتها ، ومثله نهى ابن مسعود وأبي موسى الأشعري للجماعة الذين يجتمعون ويقول أحدهم : هللوا مائة فيهللون مائة ، ويقول : سبحوا مائة فيسبحون مائة ، ويقول : كبروا مائة فيكبرون مائة ، فزجرهم هذا وقال لهم : احصوا سيئاتكم ونحن كفلاء بأن لا يضيع من حسناتكم شيء. وإنما دخلت الوثنية على العرب ، بسبب الغلو في الأنبياء والصالحين ، حتى صيروا قبورهم أوثاناً يعبدونها وما أحدث قوم بدعة إلا رفع مكانها من السنة فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة .

إنه لو كان عمل هؤلاء صحيحاً في محبة الرسول لاتبعوا أمره واجتنبوا نهيه وأكثروا من الصلاة والتسليم عليه وهم في بيوتهم وطرقهم ، ولكن هذه المآكل الشهية التي أشار إليها الكاتب بقوله : إنهم يطعمون في هذا المحفل الطعام ويلتقي عليه الإخوان ، فإن هذا هو أكبر عامل لتشييد هذه البدعة ، فإن البراطيل تنصر الأباطيل .

وأما حديث «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» فإن السنة الطريقة تطلق على العمل الحسن وعلى العمل السيء ، والكل وارد في الكتاب والسنة ، أما السنة الحسنة ففي قوله : «لقد كان لكم في في رسول الله أسوة حسنة» ، ومنه قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة» ومعنى سنة الخلفاء أي طريقة الخلفاء الراشدين .

نظيره قول عمر بن عبد العزيز : لقد سن رسول الله وأولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة في دين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر يخالفها ، من اهتدى بها فهو المهتدي ومن استنصر

بها فهو المنصور ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً .

فلا يظن أحد أن الخلفاء الراشدين يسنون للناس سنناً من العبادات تخالف أمر الرسول ونهيه ، لأن التشريع خالص حق الله ورسوله .

أما السنة السيئة ، فقد جاء بها الحديث في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ، أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، وقالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن؟» يعني طرق اليهود والنصارى. ومثله ما روى مسلم عن بن عباس ، قال : قال رسول الله : « أعتى الناس على الله ثلاثة : من قتل غير قاتله أو قتل لدخل الجاهلية أو ابتغى في الإسلام سنة الجاهلية ، الجاهلية في عملها وقولها ، ومثله حديث : ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل ، فقول النبي — صلى الله عليه وسلم — : «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» يفسره ما ثبت في الحديث نفسه الذي رواه مسلم عن جرير بن عبد الله أنه قال : كنا عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في صدر النهار فجاء قوم غزاة عراة مجتابي النمار متقلدي السيوف عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتمعر وجه رسول الله لما رأى بهم من الفاقة فدخل وخرج ثم أقبل وأدبر، ثم خطب الناس فقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تسألون به والأرحام». تصدق رجل من ديناره من درهمه من صاع بره . حتى قال: ولو بشق تمرة ، فتتابع الناس فجاء رجل بصاع تمر فلمزه المنافقون وقالوا : إن الله غني عن صاع هذا ، ثم جاء رجل بصرة دنانير كادت كفه أن تعجز عنها ، فقالوا : مرائي ، حتى اجتمع عند رسول الله كومين من الطعام وكان إذا سر استنار

وجهه ، فقال : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » يريد بذلك صاحب الصرة . وتتابع الناس بعده على القدوة في الصدقة ، ولهذا قال العلماء : ان الإعلان بالصدقة متى كان يقتدى به أفضل من إخفائها ، يقول الله « إن تبدو الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » فمدح كلا الحالتين .

فليس في الحديث دليل على صحة ما يرمي إليه الكاتب من تسمية البدع بالسنة الحسنة أو البدعة الحسنة .

وإذا أردنا أن نفسر السنة الحسنة لم نجد لها تفسيراً أوضح ولا أفصح من تفسير النبي لها في هذا الحديث وقضية الرجل الذي تصدق بصرة الدنانير وأخذ الناس يتبعونه في الصدقة كل على حسبه والفضل للمتقدم ، وإذا أردنا أن نعرف السنة السيئة لم نجد لها تفسيراً أقرب من تفسيرها بالاحتفال بالمولد النبوي ، سنة الفاطميين من أهل مصر ، ثم تبعهم الناس على ضلالهم ، لأن الناس مقلدة لبعضهم من بعض في الخير والشر ، وذكر صاحب كتاب « الإبداع في مضار الابتداع » أن أول من أحدث بدعة المولد هم الفاطميون أهل مصر ، لما رأوا النصارى يعظمون مولد المسيح ويجعلون لهم عيداً يعطلون فيه المتاجر والبيع والشراء ، أخذوا يقتدون بهم في تعظيمهم المولد النبوي ، ثم اشتهر وانتشر في البلدان على سبيل العدوى والتقليد الأعمى ، ومن عادة البدع على اختلاف أنواعها أن يقود بعضها إلى البعض حتى تكون الآخرة شر من الأولى ، فقد نشأ عن هذه البدعة بدعة أخرى سنها الكاتب وهي بدعة الاحتفال بالنعم ، حيث يزعم أنه واجب ، فالاحتفال بالمولد هو من سنة الفاطميين ليس من سنة الدين ويرجع إلى اتباع النصارى في مثل عيدهم ، فهو من تقليدهم والتشبه بهم وليس من عمل السلف الصالح ، وبهذا نعرف بأنه لا تعارض بين قوله : « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة » وبين قوله : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » وأن الكل حق ومعنى السنة الطريقة وسنة الرسول طريقته .

كما أن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل من اتبعه ، إذ ليس ذلك الصحابي هو الذي سن الصدقة ابتداء من غير سبق الشرع بها ، فإن الصدقة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع على هذه الأمة وعلى سائر الأمم قبلها ، كما قال تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » .

لقد علمنا من هؤلاء المشايخ الذين يتصدون للجلوس في صدر المحفل النبوي ويتبعهم الناس في عملهم ويقولون : أنه سنة حسنة أو بدعة حسنة ، يبرهن بزعمهم عن محبة الرسول وتعظيمه في قلوب العوام . فإن هذا القول والفعل باطل قطعاً ، فإنه بالاستمرار على فعله كل عام يصير سنة عند العوام متى غيرت قالوا : غيرت السنة . فيلحقون في الدين ما ليس منه وما لم يأذن به الله ورسوله . فتمسك بالسنة خير من إحداث بدعة .

وقد علق الناس على هذه البدعة ما يستدعي قبولها وإقبال الناس إليها من ذلك قولهم : أن من يحضر المولد النبوي فإنه يصح في جسمه ويعافى في ولده ويسعد بالأرباح الطائلة في ماله ، وينشرون بين الناس بأن الرسول يحضر محفل المولد ويعرف الحاضرين ويقولون بوجوب القيام عند ذكره وعند ولادته ، وأن من لم يحضره فإنه يبتلى بالمرض في جسده وأولاده ويخسر في ماله ولا يدخل شفاعة الرسول ، وحسبك ما أملاه هذا الكاتب من تمثيله بصلاة الجمعة والعيد وبصيام عاشوراء والاثنين وغير ذلك ، ثم استباحة صرف الآيات القرآنية عن المعنى المراد منها بتحريفها إلى غير معناها في سبيل نصر رأيه وتقوية باطله ، وأن من طبيعة البدع على اختلاف أنواعها كهذه البدعة وغيرها أنها تتوسع وتتفجر إلى فنون من الشر ، فإذا أردت أن تبحث عن حقيقة ذلك فاسأل عن بدعة المولد وعما يفعله الناس فيها في مصر ولبنان وسوريا والعراق وإيران ، وأنهم قد أحدثوا فيها أشياء كثيرة من الغلو والإطراء والبكاء والنياحة وضرب

الخدود والقيام والقعود وضرب الدفوف وشرب الخمور واختلاط الرجال بالنساء وأنواعاً من المفاسد حتى ألحقوا مولده بلهو الحديث ، لأن كل ما نهى عنه رسول الله ، فإن مفسدته راجحة ومضرته واضحة ، وأن لم يظهر ضررها حالا فإنه سيظهر بعد حين ، لا يقال أن الاحتفال بالمولد سنة فجهلها الصحابة والسلف الصالح ولا أنهم علموها فتركوا العمل بها ، كل هذا لا ينطبق عليهم والدين كامل قبلها وقد قيل :

ثلاث تشقى بهن الدار المولد والمأتم والزار

ثم قال : (لا ريب أن مضاعفة الأجور العظيمة إنما كانت للاتباع في الابتداع الحسن الذي هو الاستنان الحسن لحديث « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » وهذا الحديث قاضٍ على كل ما يقوله خصوم البدعة الحسنة وهو يدك دكاً قولهم : أن الاحتفال بالمولد النبوي بدعة ، وقولهم لو كان خيراً لسبقونا إليه ، ولا ريب أن الاحتفال بالمولد النبوي بدعة حسنة وسنة حسنة وفق الله لها من سنها وعمل بها وجعل له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة) .

فالجواب أن نقول :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

إنه في آخر الزمان يصير العلم جهلا والجهل علماً والبدعة سنة والسنة بدعة ، ينشأ على هذا الصغير ويهرم عليه الكبير ، حتى إذا غيرت البدعة قالوا غيرت السنة ، وهذا الكاتب مبتلى بقلب الحقائق في المعقول والمنقول ، فيجعل البدعة سنة والسنة بدعة ، ويجعل المأزور على تأسيس البدع مأجوراً ، فيحرف الكلم عن مواضعه ويخالف الحق مخالفة غير خافية على أحد ، لاعتقاده أنه قد وضع ناموساً للناس بعقله ولن يخر فريسة لتعاليمه السخيفة سوى همجي رعديد قليل العلم والمعرفة بحقائق العلوم النافعة ولا يروج إلا على من هو أجهل الناس وأقلهم معرفة وعلماً .

يزيف الحق القويم ويزخرف الباطل الذميم ويصد عن الصراط المستقيم ويقول هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، وحسبنا اعترافه على نفسه ، بأن الاحتفال بالمولد بدعة ، وقد أراد التهرب من مسمى هذه البدعة بقوله : إنها بدعة حسنة ثم أفرغ الثناء على من سن هذه البدعة وحكم له بأجور من عمل بها عكس ما حكم به النبي – صلى الله عليه وسلم – فقد حكم حكماً يقطع عن الناس النزاع ويعيد خلافهم إلى مواقع الإجماع ، وهو أن كل بدعة ضلالة ولا ندري هل نقدم حكم رسول الله أم حكم صاحب الرسالة ، فإن بدعة الفعل والزور لن تنقلب عملا صالحاً مبروراً إذ الأسماء لا تغير الحقائق عن مسمياتها والبدعة في اللغة هي : الزيادة في الدين بعد كماله ، وفسروها أيضاً بأنها : ما فعل على سبيل القربة مما لم يكن له أصل في الشرع .

فليس في شريعة الإسلام بدعة حسنة قطعاً وإن غلط بعض العلماء في ذلك وقد جاءت الشريعة الإسلامية بجلب المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد وتقليلها ، وأن الوسائل لها أحكام المقاصد ، فكل ما نهى عنه رسول الله من محدثات الأمور ، فإن مضرته واضحة ومفسدته راجحة وإن لم تظهر للناس في الحال ، فإنها ستصير إلى ذلك في مستقبل الزمان ، فلا راد لحكم رسول الله ولا مبدل لكلماته .

وإنما قطع عمر الشجرة التي كان الناس يتحرون الصلاة تحتها وهي الشجرة التي بايع النبي – صلى الله عليه وسلم – الصحابة تحتها ، لعلمه أن هذه الصلاة في خاصة هذا المكان ستئول إلى فتنة من عبادة هذه الشجرة ، لأن ما أهلك من قبلنا وأوقعهم في الشرك هو تتبعهم آثار أنبيائهم حتى جعلوا قبورهم أوثاناً يعبدونها والدفع أيسر من الرفع ، واقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة .

وهذا الكاتب مبتلى بقلب الحقائق في المعقول والمنقول وفي تأويله للقرآن وأحاديث الرسول ، فيجعل من ابتدع بدعة ضلالة مما ليس له أصل في كتاب

الله ولا عن سنة رسول الله ولا عن الصحابة والتابعين ولا عن أحد من أئمة المذاهب الأربعة أنه مصيب في عمله وأنه قد سن للناس سنة حسنة له أجرها وأجر من عملها ، فهو يسير على نسبة عكسية من قول الرسول وحكمه ، كما أن من دعا إلى الضلالة فإن عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وصدق الله ورسوله وكذب من افترى عليه وزاد في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله .

وهؤلاء الذين يجادلون في إثبات سنية المولد هم يعرفون من المفاسد المترتبة عليه أكثر مما نعرف ، لكنهم يجحدونها لكون هذا الاجتماع كما أشار إليه الكاتب من أنه (يلتقي فيه الإخوان ويطعم فيه الطعام) وحبك الشيء يعمي ويصم والبراطيل تنصر الأباطيل ، ولقد كان من الحزم وفعل أولي العزم في حق هذا الكاتب هو أن يصرف شيئاً من جهده وجهاده ونشاطه إلى دعوة الناس إلى ما دعاهم إليه كتاب ربهم وسنة نبيهم بالوصية منه في سلوك طريق السلف الصالح ونهي الناس عن البدع الغاشية والظلمات الغاشية ، ويفسر لهم النصوص التي جعلت قبور الصالحين والأنبياء أوثاناً وأن سببه هو الغلو في الدين والغلو في الأنبياء والصالحين ، وينهى عن اتخاذ القبور مساجد وعن تعليتها وبناء القباب فوقها ، وإيقاد السرج عليها ، وينهى عن الذبح للقبر والذبح للجن والذبح للزار ، وأنه شرك بالله ، ويأمر بالوقوف عند حدود السنن واجتناب البدع ، ويأمر بالمحافظة على فرائض الصلاة والصيام وسائر شرائع الإسلام والإكثار من الدعاء والتضرع وكثرة الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – في كل الحالات وسائر الأوقات ، فإنها من أجل الطاعات وأفضل القربات ، وأن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » ، فلو ذكر الناس بمثل هذا لكان أفضل له وأعظم لأجره ولكان له أجر من عمل به .

أنادي فلا ألقى مجيباً سوى الصدى وأحسب أن الحي ليس بآهـــل

وأما الاستدلال بجمع الصحابة للقرآن على البدعة الحسنة .

فجوابه : أن جمع القرآن ليس من البدعة الحسنة في شيء ، بل هو من الأمر المحتم المفروض على خاصة الصحابة وعلى كافة الأمة لو تركوه أثموا .

لأن حفظ القرآن عن ضياعه ونسيانه واجب ، وكان القرآن ينزل على النبي تدريجياً حسب الوقائع . وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » فبقي مفرقاً في صدور الرجال وفي الصحف والرقاع واللخاف ، فلما كانت وقعة اليمامة في قتال مسيلمة وأصحابه واستحر القتل في القراء من الصحابة ففزع عمر من الخوف على ضياع القرآن أو ضياع شيء منه بموت حملته ، وأخذ يراجع أبا بكر ويطالبه بجمعه ، وكأن أبا بكر استثقل ذلك لعدم سبق جمعه من النبي — صلى الله عليه وسلم — ولم يزل يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر كما شرح له صدر عمر وكذلك سائر الصحابة . رأوه أمراً واجباً تقتضيه المصلحة .

فوكلوا أمر تتبعه وجمعه إلى ثلاثة من قراء الصحابة يرأسهم زيد بن ثابت فجمعوا القرآن وبقي آية منه ، يقول زيد بن ثابت : كنت أسمع رسول الله يقرأها وهي قوله : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . . إلخ » فوجدتها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري فوضعتها في محلها .

فهذا الجمع للقرآن هو من الأمر الواجب على الصحابة لكونه لا يتم الانتفاع التام بالقرآن إلا بذلك وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، لكون القرآن في أحكامه وبيان حلاله وحرامه وأمره ونهيه مرتبط بعضه ببعض ، وكذلك سعة شريعته وشموله على سائر ما ينفع الناس في أمر دينهم ودنياهم ، فمصلحة جمعه راجحة ومنفعته واضحة وهم في حالة جمعه لم يأتوا بشيء زائد على أصله لا في لفظه ولا معناه ومبنى الشريعة على حماية الدين وحفظه ،

وهذا من بابه فهو من المصالح المرسلة الملائمة لمقاصد الشارع ، وقد تكفل — سبحانه — بجمعه في قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ثم إن القرآن بفحوى لفظه وخطابه يوجب أن يكون مجموعاً بمقتضى شرع الله وقدره ، كما قال تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه » وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله يعالج من التنزيل شدة ، فكان إذا نزل عليه جبريل يحرك شفتيه خشية أن ينسى شيئاً منه ، فأنزل الله « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه » أي جمعه في صدرك ثم تقرأه ، فإذا قرأناه أي أوحيناه فاتبع قرآنه ، أي فاستمع وأنصت له ، فحكم — سبحانه — بجمع القرآن المستلزم لحفظه وضبطه ، كما تولى — سبحانه — حفظه بقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا لحافظون » فجمعه هو من عناية حفظ الله له ، بخلاف الكتب السماوية النازلة على سائر الأنبياء ، فقد استحفظ أهلها عليها فحصل فيها التبديل والتغيير لعدم عناية أمتهم بحفظ دينهم ، كما قال تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

ومن صفة هذه الأمة أن أناجيلها في صدورها ولا بد مع طول الزمان أن ينسى الإنسان شيئاً منه ، لأن من طبيعة الإنسان النسيان ، وقيل أنه إنما سمي إنساناً من أجل نسيه ، كما قال تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » . وأنشدوا في هذا المعنى :

وما سمي الإنسان إلا لنسيه   وما القلب إلا أنه يتقلب

ولو لم يكن مجموعاً لمراجعة ما عسى أن ينسون منه لفات عليهم أكثره ، سيما في آخر الزمان عند زهد الناس في حفظ القرآن في صدورهم .

ثم إن قوله : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ، وقوله « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ، أي

هدى للناس إلى سبيل الحق والرشاد والمنهج السوي ، وقوله « وبينات من الهدى والفرقان » ، يعني البينات الدالة على حدود الله وفرائضه وحلاله وحرامه ، والفرقان هو الفصل بين الحق والباطل « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم حميد » « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب»، فهذا الكتاب إنما يعني به مجموع المكتوب في المصحف الإمام لسبق علم الله بجمعه فلا ينطبق هذا الوصف بهذا الاسم على سورة مفردة من سورة كسورة « لإيلاف قريش » أو سورة « إنا أعطيناك الكوثر».

إذ لولا هذا الجمع للقرآن الذي هو من واجب هذه الأمة ومن ضرورية حفظهم لدينهم وكتاب ربهم لذهب وتفرق وتمزق وزالت الثقة به ، لاحتمال دخول فيه ما ليس منه ، كما دخل في الكتب قبله ، ولو أهمل الصحابة جمعه لصاروا آثمين .

وكان أول ما أنزل الله من وحيه الأمر بالكتابه فقال سبحانه : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

وهاهنا أمر ينبغي التنبيه عليه مما يتعلق بترك أبي بكر عن المبادرة بإجابة عمر إلى جمعه ، وذلك أن بعض المسائل المستغربة تحدث زمن الصحابة ومن بعدهم فجأة فتتفرق الآراء وقد ينسون فيها حكم الله وهو معهم لكنه يغيب عنهم حال المحاضرة ، ثم يعود إليهم بغوص أحدهم إلى استنباط العلم به ، فمن ذلك موت النبي – صلى الله عليه وسلم – فقد أنكره الكثيرون وارتدت العرب من أجله ، وقالوا : لو كان نبياً لم يمت ، وكان أبو بكر غائباً بالسنح في عوالي المدينة عند زوجة له ،فلما سمع بالخبر جاء فكشف عن وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – وقبله وقال : ما أطيبك حياً وميتاً ، ثم صعد المنبر

فأقبل الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فأن الله حيّ لا يموت ، ثم قرأ « وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » .

قال عمر : فلما سمعت الآية انقطع لها ظهري كأني لم أسمعها قبل اليوم وتحققت أن رسول الله قد مات » ، فما بقي رجل ولا امرأة في المدينة إلا يتلو هذه الآية بعد استنباط أبي بكر لها والحكماء يحبون الرأي الخمير ويكرهون الرأي الفطير ، وأما عدم جمع النبي للقرآن في حياته ، فإن الأمر فيه معقول ، وذلك أن القرآن ينزل تدريجياً منجماً على حسب الوقائع وقد استحر نزوله وتتابع قرب وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنزل عليه وهو واقف بعرفة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » وليس بعد التمام إلا النقص وذلك في حجة الوداع ، وأخذ يودع الناس فيها ويقول : « لعلكم لا تلقوني بعد عامي هذا » فسميت حجة الوداع من أجل ذلك .

ثم أنزل الله عليه في أوسط أيام التشريق سورة النصر « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » ففي هذه السورة إشعار باقتراب أجل رسول الله ، كما فسره بذلك ابن عباس ، يعني يا محمد إذا جاء نصر الله والفتح : يعني فتح مكة ، وكان العرب قد تريثوا في دخول الإسلام إلى فتح مكة ويقولون إن كان نبياً فسيعلوا قريشاً ويفتح مكة ، وإن لم يكن نبياً فستغلبه قريش ، فلما فتح مكة عنوة أخذ الناس يدخلون في الدين أفواجاً وسمي عام التسع بعام الوفود ، وكان آخر ما نزل عليه من القرآن قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » من آخر سورة البقرة ، وتوفي رسول الله بعدها بتسع ليال ، وهذا هو السبب لعدم جمعه للقرآن .

ومثله لمّا منع للعرب زكاة أموالهم وعزم أبو بكر أن يقاتلهم على منعها فعارضه الصحابة على رأيه ، وقالوا : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » ، فقال لهم أبو بكر : إن الزكاة من حق لا إله إلا الله . قال عمر فعلمنا أنه الحق فاتبعناه ، ولما بلغ عمر أن أناساً يفضلونه على أبي بكر ، قام في الناس فقال : أما أني سأخبرك عني وعن أبي بكر أنه لما مات رسول الله ارتدت العرب بأسرها فمنعت شاءها وبعيرها فاتفق رأينا أصحاب محمد أن أتينا إلى أبي بكر الصديق وقلنا : يا خليفة رسول الله ، إن رسول الله كان يقاتل الناس بالوحي والملائكة يمده الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم فالزم بيتك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب كلهم . فقال : أوكلكم راية على هذا ؟ قلنا : نعم . فقال : والله لأن أخر من السماء فتخطفني الطير أحب إلى من أن يكون هذا رأيي ، أيها الناس إن قل عددكم وكثر عدوكم ركب الشيطان منكم هذا المركب والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصدق، «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » ، « وتالله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه واستعنت الله عليهم وهو خير معين » .

وهكذا سائر ما يقع بين المتقدمين والمتأخرين من الحوادث المفاجئة التي تعزب فيها الأفهام ، لأن الحفظ يحضر ويغيب ومن حفظ حجة على من لم لم يحفظ والناس يتفاوتون في العلوم والأفهام وفي الغوص إلى استنباط المعاني والأحكام أعظم من تفاوتهم في العقول والأجسام ، فتأخذ العيون والآذان من الكلام على قدر العقول والأذهان فيتحدث كل إنسان بما فهمه على حسب ما وصل إليه علمه وعادم العلم لا يعطيه وكل إناء ينضح بما فيه .

فمن واجب الكاتب أن يبدي غوامض البحث بالتحقيق ويكشف مشاكله ودلائله بصناعة التطبيق مع العلم أن المبني على دعائم الحق والتحقيق لن يزلزله

مجرد النفخ بالريق ، لأن الحق مضمون له البقاء وأما الزبد فيذهب جفاء فيكون مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا هوى .

غموض الحق حين تذب عنه   يقلل ناصر الخصم المحق
تظل عن التحقيق فهوم قوم   فتقضي للمجل على المدق

ثم قال : إن عمر بن الخطاب قال في الأذان الأول يوم الجمعة : نحن ابتدعناه بعد وفاة النبي — صلى الله عليه وسلم — . . إلخ .

فالجواب : أن الأذان الأول يوم الجمعة أول من أمر به هو عثمان بن عفان ، حين كثر الناس في المدينة وأراد أن ينبههم على المبادرة إليها بهذا النداء وليس في خلافة عمر ، ولم يثبت هذا القول عن عمر ، وإنما قال نحو هذه الكلمة في صلاة التراويح جماعة ، والأذان هو من ذكر الله — عز وجل — شرع لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة ، وقد جاز أن يؤذن للفجر من الليل ليوقظ بذلك النائم وينبه الغافل ، والأذان الأول للجمعة يشبه هذا وقد عده الشاطبي صاحب الاعتصام من المصالح المرسلة الملائمة لمقاصد الشارع .

ثم إن الأذان يستحب عند الحريق وعند الغيلان وفي أذان المولود والشريعة الإسلامية مبنية على جلب المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد وتقليلها ، فمصلحته راجحة ومنفعته واضحة ولا يترتب عليه أي شيء من المفاسد ، فكما شرع لدخول وقت الصلاة ، فقد شرع أيضاً لغير دخولها ، إذ هو نداء إلى الصلاة أشبه المحتسب يمر بالجلوس وهم غافلون فيقول لهم : قوموا إلى الصلاة بصوت رفيع ، أفيقال أن هذا بدعة .

ثم هنا أمور أوجب الضرورة فعلها وإن لم تكن مفعولة على عهد النبي — صلى الله عليه وسلم — فمن ذلك تعدد الجمعة في البلد الواحد ، فإنه لم يكن في عهد النبي ولا في بلده تصلى الجمعة إلا في مسجد واحد ، وقد أوجبت الضرورة من بعده تعدد الجمع من أجل كثرة الناس ليتم قيام الناس بأداء هذا

الواجب والضرورة تقدر بقدرها ، وهذا مصلحة راجحة ومنفعة واضحة ، وهو من المصالح المرسلة الملائمة لمقاصد الشارع ، وهو نظير الأذان الأول يوم الجمعة ، ومثله استدلالهم بصلاة التراويح ويقولون إنها بدعة حسنة وهذا خطأ في الفهم وفي التعبير ، فإنه ليس في الشرع بدعة حسنة وإن قال به من قاله . بل كل بدعة ضلالة كما أخبر النبي — صلى الله عليه وسلم — بذلك ، فإن قوله : « كل بدعة ضلالة » هو منكر مضاف فيعم ، ومثله قولهم في صلاة التراويح جماعة وأنها بدعة حسنة .

وصلاة التراويح سنة حسنة سنها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قولا منه وفعلا وإقراراً ، ففي البخاري عن عائشة ، أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد وصلى رجال بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا ، فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه ، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله فصلى وصلوا بصلاته ، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبـــل على الناس فتشهد ، ثم قال : أما بعد ، فإنه لم يخف علي مكانكم ، ولكن خشيت أن تفترض عليكم فتعجزوا عنها ، فتوفي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والأمر على ذلك ، قال ابن شهاب : ثم كان الأمر كذلك على خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر ، وفي البخاري أيضاً عن ابن شهاب عن ابن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاريّ ، أنه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب في ليلة من رمضان إلى المسجد ، فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل ويصلي بصلاته الرهط ، فقال عمر : إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئٍ واحد لكان أمثل ، فجمعهم علي أبي بن كعب ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم ، فقال عمر : نعم البدعة هذه والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون ، يعني آخر الليل ، وكان الناس يقومون أوله .

فدل هذا الحديث على أن صلاة التراويح سنة سنها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأنه إنما امتنع من مواصلة العمل على فعلها بهم جماعة خشية أن أن تفرض عليهم فيعجزوا عنها ، فترك الخروج إبقاء عليهم ورحمة بهم ، ولم يقل : أن فعلها جماعة غير جائز ، أو أنه بدعة ، وقد زال هذا المحذور في تحتمها عليهم بموته ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبقي الاستحباب ، وقد أشار النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إليها بقوله : « من صلى مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة » وهي داخلة في عموم قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه البخاري ومسلم . وفي قوله : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » متفق عليه . وهذه المغفرة وهذا التكفير إنما يراد بها مغفرة صغائر الذنوب وسميت صلاة التراويح من أجل أنهم يطيلون القيام والركوع والسجود فيها ، حتى أنهم يعتمدون على العصي من طول القيام وهو مأخوذ من قول عائشة : كان رسول الله يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يستريح . كما ورد في بعض روايات الحديث .

وقالت : ما كان رسول الله يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يوتر بثلاث . متفق عليه .

فكان الناس في زمن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يصلونها أوزاعاً متفرقين ، الرجل مع الرجل والرجل مع الرجلين والرجل ومعه الرهط زمن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وزمن أبي بكر ، حتى كان زمن عمر ، فقال : أما أني لو جمعت هؤلاء على إمام واحد ، لكان أمثل ، فجمعهم على أبي بن كعب والنساء على تميم الداري وذكر ابن حجر في فتح الباري ، أن أبي بن كعب صلى بهم تلك الليلة ثماني ركعات وأوتر بثلاث ، طبق ما فعله النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا مشاحة في زيادة عدد الركعات إلى عشرين ركعة ، مع

اختصار القيام والركوع والسجود كما عليه عمل أئمة المذاهب ، إذ هي من التطوّع المطلق الذي لم يقيد بعدد .

والمقصود أن التراويح سنة سنها رسول الله قولا منه وفعلا ، وإقراراً ، فلا يجوز تسميتها بالبدعة الحسنة ، وإنما هي سنة حسنة ، وكل بدعة فإنها سيئة فلا تقاس على الاحتفال ببدعة المولد الذي لا يزال علماء السنة في كل عصر ومصر ينكرونها وينهون أشد النهي عنها وعن الحضور لها .

وبما أن الناس يتهموننا بالتشديد في إنكار الاحتفال بالمولد النبوي ، ويزعمون أنه بدعة حسنة وأنه لا يبالغ في إنكاره إلا العلماء النجديون أو من يسمونهم بالوهابيين .

لهذا نورد من أقوال علماء أهل السنة من سكنة الأمصار ما يدل على أن العلماء المحققين قد أنكروا بدعته وعدم سنيته .

منهم السيد محمد رشيد رضا ، علامة مصر وصاحب المنار ، والمعروف بطول الباع وسعة الاطلاع في العلوم النقلية والعقلية والاعتقادية ، ودونك نص السؤال المرفق بالجواب عنه .

سئل محمد رشيد رضا — رحمه الله — رقم ٧٦٥ — ص ٢١١١ — ج ٥ من فتاوى المنار : هل يجوز للإنسان حضور حفلة مولد النبي — صلى الله عليه وسلم — وإذا لم يحضر ، هل يعد كافراً ، ومن يقم أثناء قراءة المولد ، أي عند سماع قول مرحباً بالنبي . . إلخ ، هل يعد كافراً أيضاً ، لأن العلويين في جاوة يعقدون حفلات كثيرة في كل سنة وفي أماكن متعددة وأوقات مخصوصة ، يذبحون لها الذبائح وتشد لها الرحال من أماكن بعيدة ويلقنون الناس في أثناء الحفلات ، أن من يحضر المولد ولم يقم عند سماع مرحباً . . إلخ ، فهو كافر . أفتونا مأجورين وأبقاكم الله عوناً للحق .

فأجاب محمد رشيد رضا — رحمه الله — قائلا :

ج : سئل الحافظ ابن حجر عن الاحتفال بالمولد النبوي ، هل هو بدعة أم له أصل ؟ . فأجاب بقوله : أصل عمل المولد بدعة لم تنقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة ، ولكنها مع ذلك قد اشتملت على محاسن وضدها ، فمن جرد عمله في المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة . ومن لا فلا .

وأقول(١) : أن الحافظ – رحمه الله تعالى – حجة في النقل ، فقد كان أحفظ حفاظ السنة والآثار ، ولكنه لم يؤت ما أوتي الأئمة المجتهدون من قوة الاستنباط ، فحسبنا من فتواه ما تعلق بالنقل ، وهو أن عمل المولد بدعة لم تنقل عن أحد من سلف الأمة الصالح من أهل القرون الثلاثة التي هي خير القرون بشهادة الصادق المصدوق – صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله – ومن زعم بأنه يأتي في هذا الدين بخير مما جاء به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجرى عليه ناقلوا سنته بالعمل ، فقد زعم أنه – صلى الله عليه وسلم – لم يؤد رسالة ربه كما قال الإمام مالك – رحمه الله تعالى – وقد أحسن صاحب عقيدة الجوهرة في قوله :

وكل خـــير في اتباع من سلف　　　وكل شر في ابتـداع من خلف

وأما قول الحافظ : أن من عمل فيه المحاسن وتجنب ضدها ، كان عمله بدعة حسنة ومن لا فلا ، ففيه نظر ويعني المحاسن قراءة القرآن وشيء من سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – في بدء أمره من ولادته وتربيته وبعثته والصدقات وهي مشروعة لا تعد من البدع ، وإنما البدعة فيها جعل هذا الاجتماع المخصوص بالهيئة والوقت المخصوص وجعله من قبيل شعائر الإسلام التي لا تثبت إلا بنص الشارع ، بحيث يظن العوام والجاهلون بالسنن أنه من أعمال القرب المطلوبة شرعاً ، وهو بهذه القيود بدعة سيئة وجناية على دين الله تعالى ، وزيادة فيه

(١) هذا من قول محمد رشيد رضا .

تعد من شرع ما لم يأذن به الله ومن الافتراء على الله والقول في دينه بغير علم ، فكيف إذا وصل الجهل بالناس إلى تكفير تاركه ، كأنه من قواعد العقائد المعلومة من الدين بالضرورة ؟ أليس يعد في هذه الحال وبين هؤلاء الجهال من أكبر كبائر البدع التي قد تقوم الأدلة على كونها من الكفر بشرطه ، فإن الزيادة في ضروريات الدين القطعية وشعائره كالنقص منها يخرجه عن كونه هو الدين الذي جاء به خاتم النبيين عن الله تعالى ، القائل فيه « اليوم أكملت لكم دينكم » ، فهو تشريع ظاهر مخالف لنص إكمال الدين وناقض له ، ويقتضي أن مسلمي الصدر الأول كان دينهم ناقصاً أو كفاراً . وقد ورد أن أبا بكر وعمر وابن عباس – رضي الله عنهم – قد تركوا التضحية في عيد النحر لئلا يظن الناس أنها واجبة ، كما ذكره الإمام الشاطبي في الاعتصام (ص ٢٧٦) وغيره، أفلا يجب بالأولى ترك حضور هذه الحفلات المولدية ، وأن خلت من القبائح واشتملت على المحاسن لئلا يظن العوام أنها من الفرائض التي يأثم فاعلها أو يكفر تاركها ، كما يقول بعض مبتدعة العلويين الجاهلين المذكورين في السؤال ؟ . فكيف إذا كانت مشتملة على بدع ومفاسد أخرى كالكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في سيرته وأقواله وأفعاله ، كما هو المعهود في أكثر القصص المولدية التي اعتيد التغني بها في هذه الحفلات ؟

وأما القيام عند ذكر وضع أمه له – صلى الله عليه وسلم – وإنشاد بعض الشعر أو الأغاني في ذلك ، فهو من جملة هذه البدع ، وقد صرح بذلك الفقيه ابن حجر المكي الشافعي الذي يعتمد هؤلاء العلويون على كتبه في دينهم ، فقال عند ذكر الإنكار على من يقوم عند قراءة : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) ، لما ورد في ذلك بسبب قد زال ما نصه : ونظير ذلك فعل كثير عند ذكر مولده – صلى الله عليه وسلم – ووضع أمه له من القيام وهو أيضاً بدعة لم يرد فيه شيء على أن العوام إنما يفعلون ذلك تعظيماً له ، انتهى .

فهذا ملخص كلام علماء الإسلام وأن الاحتفال بالمولد بدعة ويقود إلى بدعة أخرى وهي الاحتفال بالنعم ، لكون البدع يقود بعضها إلى بعض .

وأعلم أن كل بلد لا يؤمر فيها بالمعروف ولا ينهى فيها عن المنكر وليس فيها رقابة دينية تمنع محدثات البدع والمنكرات ، فإنه من اللازم أن تنشأ فيها المذاهب الهدامة والبدع المنحرفة والملل والنحل المختلفة ، لكون السكوت عن مثل هذه الأشياء هو مما يسبب إنشاءها وفشوها وانتشارها والوقاية خير من العلاج والدفع أيسر من الرفع ، أما إنكار البدع والمنكرات فإنه مما يقلل فشوها وانتشارها وقمع المؤسسين لها ، والله يزع بالسلطان أعظم مما يزع بالقران ، «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» ، يقول الله: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله» ، وقد ضرب النبي – صلى الله عليه وسلم – مثلا لعمل المنكرات والمخالفات والسكوت عنها أو الأخذ بأيدي من فعلها . ففي البخاري عن النعمان بن بشير عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال مثل القائم في حدود الله أي الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، والواقع فيها : أي الذي يعمل بالمنكرات والمخالفات ، كمثل قوم استهموا سفينة فكان بعضهم في أعلاها أي السطح وبعضهم في أسفلها : أي الخن ، فأراد الذين في أسفلها أن يخرقوا خرقاً يتناولون منه الماء من عندهم قال : فإن أخذوا على أيديهم ومنعوهم نجوا ونجوا جميعاً ، وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً ، وهذا المثال مطابق للواقع وأنه يخشى أن يغرق الناس في المنكرات ثم في العذاب عليها عند سكوتهم عنها «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» .

وقد امتن الله على المسلمين في القرون الوسطى ، أي القرن السابع والثامن بشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية – رحمه الله – فقد نشأ في عصر اضطراب وقلق ، وكان المسلمون عرضة لغارات الصليبيين والتتار ، وكانوا متفرقين في النزعات والمذاهب والآراء ، فحمل ابن تيمية – رحمه الله – راية الإسلام بالحجة والبيان والسنة والقرآن والسيف والسنان ، مما يجعله في مقدمة الأبطال الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، فهو بطل دين وعلم ومن أعلام

الفكر العالي ، قد اجتمع فيه سعة العلم وصحة العقيدة وعزة الإيمان حتى أنطق الله ألسنة الناس بتسميته شيخ الإسلام .

ولم يسجل التاريخ في مشارق الأرض ومغاربها بعد رسول الله وخلفائه وأصحابه أكثر مما سجل له من قوة الإبداع وتجلية الحق والبصيرة في النقد والعدالة في الحكم ومطابقة النقل للعقل ، وحتى النصارى فقد شاركوا المسلمين في التراجم الواسعة في فضله وسعة علمه وذكائه ، ثم تصدى لمحاربة سائر البدع على اختلاف أنواعها ، فغزاها في عقر دارها وفند آراء المؤيدين لها ، كما فند آراء الذين يستشفون بالمقبورين من الأنبياء والصالحين ، وكما رد على القدرية القايلين بالجبر ونفاة المشيئة والقدرة عن الله ، وكما رد على الجهمية نفاة الصفات ونفاة الكلام ، القائلين بخلق القرآن ، قائلا : إن الكلام صفة كمال والله موصوف بالكمال ، وقال : إن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، فكما أن لله ذاتاً لا تشبه ذات المخلوقين ، فكذلك له صفات لا تشبه صفات المخلوقين ، « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ، وكما رد على الفلاسفة وعلى الصوفية وعلى أهل الكلام والمنطق ، وكما رد على النصارى وعلى الشيعة في كتابه « منهاج السنة » وهو دائرة علوم إسلامية ، فاستطاع إقناع كل طائفة بالدليل القاطع حتى من قواعدهم أنفسهم ، فهدم أصول الفلسفة بفؤوس الفلسفة وأهل التصوف بنفس التصوف وأهل الكلام بمعرفة علوم أهل الكلام ، فرد على كل فريق بما استحقه من قول الحق ونصيحة الخلق ، لأنه ــ رحمه الله ــ قد عل ونهل من كل مناهل العلوم والمعرفة ، فهو ذو الخبرة الدقيقة في فهم الحديث رواية ودراية ، والمعرفة التامة بالرجال وطبقاتهم وجرحهم وتعديلهم وهو البصير بالتفسير واستنباط معاني كتاب الله بالفهم الدقيق .

وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين ومذاهب الأئمة الأربعة وتمييز الصحيح من الضعيف من أقوالهم ، فلا يوجد له فيه نظير ، وكذا معرفته بالملل والنحل وأصول أهل الكلام وجميع علوم الإسلام أصولها وفروعها ، ودقها

وجلها ، وحسبنا شهادة الذهبي في وصف حالته في حياته وهو المطيل لصحبته وإدمان محبته .

قال الذهبي – رحمه الله – فيما نقله عنه الحافظ بن حجر في الدرر الكامنة ، ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية ، قال ما نصه :

كان يقضى من شيخ الإسلام بالعجب ، إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل لها ورجح ، فما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه ، ولا أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه ، كأن السنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه ، وكان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه .

وأما أصول الديانة ورد أقوال المخالفين ، فكان لا يشق غباره فيها ، ولعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلاثمائة مجلد بل أكثر ، وكان قوالا بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم .

قال : ومن خالطه وعرفه فقد ينسبني إلى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه تعتريه حدة ولكن يقهرها بالحلم ، ولم أر مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه إلى ربه ، وكان مع سعة علمه وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين بشراً من البشر ، تعتريه حدة في البحث وغضب وشظف للخصم ، تذرع بسببها عداوة في النفوس ، وإلا فلو لاطف خصومه لكان كلمة إجماع ، وأن كبار العلماء خاضعون لعلومه معترفون بندور خطئه ، وأنه بحر لا ساحل له وكنز لا نظير له ، وكان محافظاً على الصلاة والصوم ، معظماً للشرائع لا يؤتى من سوء فهم ، فإن له الذكاء المفرط ، ولا من قلة علم ، فإنه بحر زاخر ، ولا كان متلاعباً بالدين ولا ينفرد بمسألة بمجرد التشهي بدون دليل ، بل يحتج بالقرآن وبالحديث والقياس ويبرهن ويناظر أسوة بمن تقدمه من الأئمة ، فله أجر على خطئه وأجران على إصابته ، انتهى (ج ١ – ص ١٥٠) .

وأقول : لقد حاول حساده من المعاصرين له ، ممن يرون في أنفسهم أنهم أكبر سناً وقدراً منه أن يقمعوا نور علمه وتعاليمه بالقوة ، وأن يطفئوا نور

الله الذي آتاه بالوشاية به إلى السلطان التي أوجبت دخوله السجن مرة بعد أخرى وقد أغلظ عليه السبكي بالكلام على فتواه بالطلاق الثلاث بلفظ واحد عن طلقة واحدة ، وأن اليمين بالطلاق هي يمين مكفرة وليست بطلاق فبالغ السبكي في الرد عليه وتخطئته في ذلك .

ولما كتب الذهبي إلى السبكي ، يعاتبه على تحامله بالكلام على شيخ الإسلام فأجابه السبكي قائلا :

وأما قول سيدي في الشيخ تقي الدين ، فالمملوك يتحقق كبير قدره وغزارة بحره وتوسعه في العلوم العقلية والنقلية وفرط ذكاءه واجتهاده وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل مع ما جمع الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه وجريه على سنن السلف وأخذه في ذلك بالمأخذ الأوفى وغرابة مثله في هذا الزمان ، بل من أزمان ، انتهى . — ج ١ ص ١٥١ .

ومثله أبو حيان ، فقد كان يحب شيخ الإسلام ويعترف بفضله وسعة علمه ، وقد امتدحه بأبيات ، منها :

لما أتانا تقي الدين لاح لنـــا	داع إلى الله فـــرد مالــــه وزر
حبر تسربل من دهـــره حبرا	بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنـــا	مقام ســـيد تيم إذ عصت مضر
فأظهر الحق إذ آثاره اندرست	وأخمد الشر إذ طارت له شرر

ثم إن أبا حيان بعد هذا الكلام ناظر شيخ الإسلام في مسألة نحوية ، فقال أبو حيان : إن في كتاب سيبويه أن الصواب فيها كذا وكذا ، فقال شيخ الإسلام إن سيبويه ليس بنبي النحو وقد غلط في كتابه في أكثر من ثمانين موضعاً لا تعرفها أنت ولا أبوك ، فقام أبو حيان مغضباً وفارق شيخ الإسلام ، وصار يتحامل عليه في تفسيره « البحر المحيط » عند هذه الكلمة النحوية .

ونتيجة الأمر هو ما قاله عمر بن الوردي ، يندب شيخ الإسلام ويعاتب المعادين له ، وأن حقيقة الأمر هو الحسد منهم له على ما آتاه الله من فضله فقال :

عشا في عرضه قوم سلاط ... لهم من نثر جوهره التقاط

تقي الدين أحمد خير حبر ... خروق المعضلات به تخاط

هم حسدوه لما لم ينالوا ... مناقبه فقد مكروا وشاطوا

وكانوا عن طرائقه كسالى ... ولكن في أذاه لهم نشاط

والمقصود أن التاريخ الصادق صفى خلاصة محنة شيخ الإسلام وخصومه فأنطق الله ألسنة الناس بتسميته شيخ الإسلام وتقي الدين ، فإنه لم يسم بذلك نفسه ، وإنما سماه الناس به .

إن أكثر الناس لا يتحمل الصبر على مخالفة رأيه ومذهبه ، ويتحامل بالذم على من ارتفع عليه في العلم حسداً له على ما أتاه الله من فضله ، ويضطرب عند مخالفته ولو في مسألة فرعية ، لا إنكار في الخلاف في مثلها ، فتراه يتحامل باللوم فيفند رأيه ويصغر أمره ويحاول الحط من قدره ، ليثبت في نفوس العوام عدم الاعتداد بقوله ، ولا يزال هذا الحسد موجوداً في الناس من قديم الزمان وحديثه .

ومن العجيب أنه لا يزال يوجد أناس يتظاهرون لعداوة شيخ الإسلام ابن تيمية ، كما نسبوا عن رجل من أهل الخليج ، وأنه في خاصة هذا الزمان أحرق كتب شيخ الإسلام عداوة وحقداً ، وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على تخلق فاعله بالإلحاد العريق والجهل العميق .

وكم سيد متفضل قد سبه ... من لا يساوي طعنة في نعله

إن مكتبات المسلمين وحتى مكتبات النصارى مملوءة من كتب شيخ الإسلام فلن يبرد غلة هذا الملحد ما صنعه من إحراق كتبه « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

يا محنـــة الإسلام والقـــرآن من — جهل الصديق وبغي ذي طغيان
وأخو الجهالة في خفارة جهله — والجهل قد يأتي من الكفـــران
تباً لهاتيك العقـــول فإنهـــا — والله قد مسخت على الأبدان
قل لي متى سلم الرسول وصحبه — والتابعـــون لهم على الإحسان
من جاهل ومعـــاند ومنافق — ومحـــارب بالبغي والطغيان(١)

(١) هذا الشعر للعلامة ابن القيم من كتابه « الكافية الشافية » .

الادب الشرعي في مولد النبي

روى الإمام أحمد من حديث العرباض بن سارية السلمي ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : إني عبد الله في أم الكتاب وخاتم النبيين ، وأن آدم لمنجدل في طينته وسوف أنبئكم بتأويل ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي آمنة ، وذلك أنها رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » .

وهذا هو أصح حديث وأصرحه في هذا المعنى ، فمعنى : أني عبد الله وخاتم النبيين في أم الكتاب : أي في كتابة المقادير ، فإن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وهذه الكتابة : هي عبارة عن سبق علم الله بنبوته ، وأنه خاتم النبيين والمرسلين ، وأنه لا نبي بعده ، وأما دعوة إبراهيم : فهي قوله : « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة . وأما بشرى عيسى : فهي قوله : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » فالرسول اسمه أحمد واسمه محمد وأما رؤيا أمه آمنة ، فإنها رأت بأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام . فهذه رؤيا منام ، وقد وقعت بالعيان ، فإنه الهدى والنور التام ، عصمة لمن تمسك بهديه ، ونجاة لمن اتبعه « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

ولد النبي — صلى الله عليه وسلم — لثمان من ربيع الأول ، وقيل لاثنتي عشرة منه في قول المؤرخين وعاش أربعين سنة ، لم يوح إليــه بشيء وكل

ما يذكره قصاص المولد من أنه ولد وهو ساجد أو أنه خرج معه نور صفته كذا وكذا ، أو أن آدم خلق من نور محمد ، وأن جميع الوحوش البرية والبحرية بشر بعضها بعضاً بالحمل به ، وأن مريم حضرت مولده ، وأن الرسول يحضر حفلة المولد ويعرف الحاضرين به ، فكل هذه وما في معناها فإنها من الموضوعات التي لا صحة لها ، ولهذا قال في معرض الاحتجاج على قومه : « ولقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » وهذا العمر هو أربعون سنة ، وبعد الأربعين فاجأه الحق ونزل عليه الوحي بغار حراء .

ولا شك أن مقام بعثته ونزول الوحي بنبوته أنه أعلى وأجل وأعظم وأفضل من مقام ولادته ، إذ أنه ولد كما يولد سائر الناس وفضله الله بالبعثة والرسالة على سائر الناس ، والله – سبحانه – إنما امتن على عباده المؤمنين بنبوته وبعثته ، لا بمجرد ولادته ، فقال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

فساق – سبحانه – هذه الآية مساق الامتنان على عباده المؤمنين ببعثة هذا النبي الكريم « عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

نظيره قوله تعالى « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » .

فبعث الله نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – بدين كامل وشرع شامل صالح لكل زمان ومكان قد نظم حياة الناس أحسن نظام بالحكمة والمصلحة والعدل والإحسان ، فلو أن الناس آمنوا بتعاليمه وانقادوا لحكمه وتنظيمه ، ووقفوا عند حدوده ومراسيمه لصاروا به سعداء .

بعثه الله على حين فترة من الرسل ، وقد فشت بين الناس الجهالة وخيمت عليهم الضلالة ، وصار لكل قوم آلهة يعبدونها من دون الله ، فهم يعبدون

الأشجار والأحجار والقبور ، فبصر الناس من العمى وأنقذهم من الجهالة ، وهداهم من الضلالة وفتح به أعيناً عمياء وآذاناً صماء غلفاً ، فدخل الناس ببركة بعثته في دين الله أفواجاً طائعين مختارين .

فقوله : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم » يريد بالأميين : العرب سموا بالأميين ، لكون الأمية وهي عدم المعرفة للقراءة والكتابة سائدة من بينهم ليس عندهم مدارس ولا كتب ، أشبه العرب المتنقلة ، وإنما تعلموا العلم والكتابة بعد نزول القرآن وبعد بعثة محمد — عليه الصلاة والسلام — وأول ما أنزل الله عليه « إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ، فهي تمهيد للانتباه لتعلم العلم والكتابة ، وسمى الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم — أمياً من أجل أنه لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، يقــول الله « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحــرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » ، وأمية الرسول هي معجزة من معجزات نبوته ، كما قيل : كفاك بالأمي معجزة ، وإنما اختار الله له الأمية كرامة وعصمة ، لئلا تتطرق الظنون الكاذبة إليه أو على القرآن النازل عليه ، بحيث يقولون : تعلمه من كذا أو كتبه من كتاب كذا .

يقول الله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » .

ثم قال : « يتلو عليهم آياته » أي القرآنية ويفسرها لهم ويسألونه عما أشكل عليهم منها . قال ابن مسعود : كنا إذا تعلمنا عشر آيات لم نتجاوزهن حتى نتعلم معانيهن والعمل بهن ، ثم قال : « ويزكيهم » أي بالمحافظة على الفرائض

والفضائل والتخلي عن منكرات الأخلاق والرذائل ، لأن هذه هي التي تزكي النفوس وتطهرها وتنشر في العالمين فخرها ، وقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها .

ثم قال : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » ، فالكتاب : القرآن والحكمة : السنة « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

أي أن العرب قبل الإسلام وقبل بعثة محمد — عليه الصلاة والسلام — كانوا في شر وشقاء وضلالة عمياء ، يقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم نساء وأموال بعض ، وكانوا مضطهدين بين كسرى وقيصر ، قد سادهم الغرباء في أرضهم وأذلهم الأجانب في عقر دارهم ، لم يستقلوا استقلالا تاماً إلا بالإسلام وبعد بعثة محمد — عليه الصلاة والسلام — .

ولم تعرفهم الأمم وتخضع لهم وتخشى صولتهم إلا بعد الإسلام وبعد بعثة محمد — عليه الصلاة والسلام — فكانوا بالإسلام هم الصدر المقدم والسيد المرهوب بين الأمم .

فالإسلام والعمل به على التمام أنشأ العرب نشأة مستأنفة ، خرجوا من جزيرتهم والقرآن بأيديهم يفتحون به ويسودون ، فهو السبب الأعظم الذي به نهضوا وفتحوا وسادوا وبلغوا المبالغ كلها من المجد والرقي وتحولوا بهدايته من الفرقة والاختلاف إلى الوحدة والائتلاف ، ومن القساوة والغلظة إلى اللين والرحمة ، ومن الجفاء والأمية إلى الحضارة والمدنية ، واستبدلوا بأرواحهم الجافية الجاهلية أرواحاً جديدة دينية صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة وعلم ومجد وعرفان .

وقد أنجزهم الله ما وعدهم به في القرآن في قوله « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » وصدق الله وعده فكانوا هم ملوك الأمصار ، بعد أن

كانوا عالة في القرى والقفار ، يعز على أحدهم ستر عورته وشبع جوعته ، كما في صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه قال : « لقد رأيتني وأنا سابع سبعة من أصحاب النبي ، ما لنا طعام نأكله إلا ورق الشجر حتّى قرحت أشداقنا ، وإني التقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن أبي وقاص ، فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها ، فما منا أحد إلا وهو أمير على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله حقيراً » وقد ذكرهم الله بهذه النعمة مقروناً بذكر ما سبق لهم من البلاء والبأساء وضيق العيش ، فقال تعالى : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » .

قال قتادة : «كان العرب قبل الإسلام وقبل بعثة محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ كانوا أذل الناس ذلاً وأشقاهم عيشاً وأجوعهم بطوناً وأعراهم ظهوراً وأبينهم ضلالاً ، يؤكلون ولا يأكلون والله ما نعلم من حاضر أهل الأرض شر منزلة منهم حتّى جاء الله بالإسلام ، فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس ، فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر» .

وقد بشرهم رسول الله بهذا الفتح وسعة الرزق قبل حصوله ، كما في البخاري أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان عند أم حرام بنت ملحان ، فضحك ، فقالوا : مم تضحك يا رسول الله ؟ فقال : « عرض على أناس من أمتي يركبون ثبج هذا البحر ملوك على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة . فقالت أم حرام : أدع الله أن يجعلني منهم . فقال : أنت منهم ، فخرجت غازية مع زوجها عبادة بن الصامت ، فسقطت عن دابتها فماتت ــ رضي الله عنها ــ والمقصود ، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يشرع لأمته تعظيم مولده بمثل هذا الاحتفال والتجمع فيه ، ثم إلقاء الخطب والأشعار فيه ، بل ثبت عنه ما يدل على كراهيته لذلك ، ففي الصحيح أن النبي ــ صلى الله عليه

وسلم – قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » والإطراء هو مجاوزة الحد في المدح ، وكان يقول : « إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » .

لهذا لم يثبت عن الخلفاء الراشدين ولا عن الصحابة والتابعين ولا عن أئمة المذاهب المتبوعين مثل الإمام أحمد والشافعي ومالك وأبي حنيفة وأصحابهم ، فلم يثبت عنهم تعظيم مولد الرسول ولا التجمع في يومه ولا يوم الإسراء والمعراج ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه .

وذكر صاحب « الابداع في مضار الابتداع » أن أول من أحدث بدعة المولد هم الفاطميون أهل مصر ، لما رأوا النصارى يعظمون مولد المسيح ، ويجعلونه عيداً يعطلون فيه الأعمال والمتاجر ، أرادوا أن يظاهوهم على بدعتهم بتعظيم مولد الرسول ، فقابلوا بدعة ببدعة ومنكراً بزور ، وعلى من سنها وزر من عمل بها إلى يوم الحشر والنشور .

فتعظيم المولد النبوي ليس من الإسلام ولا من عمل السلف الصالح الكرام ، وإنما هو من تقليد النصارى والتشبه بهم .

لقد علمنا أن بعض المنتسبين إلى العلم يحبذون المولد للناس ، ويقولون : إنها بدعة حسنة تبرهن عن محبة الرسول وتعظيمه في قلوب العوام ، لما يترتب عليه من اجتماع الإخوان وإطعام الطعام وإفشاء السلام ويوهمون الناس بأنها بدعة حسنة .

وهذا القول باطل قطعاً ، فإنه ليس في الشرع بدعة حسنة ، بل كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، وبالاستمرار على فعلها كل عام فإنه يستقر فرضها أو فضلها في نفوس العوام متى غيرت أو أزيلت قالوا : غيرت السنة وقد علقوا عليها من الأقوال ما يستدعي إقبال الناس إليها ، فكانوا يقولون : إن من يحضر المولد ، فإنه يحصل له من الربح كذا ويعافى في جسده وعياله ونحو ذلك من

الأرجاف ، ومن لم يحضر المولد ، فإنه يخسر في ماله ويصاب بالأضرار والأمراض في جسده وعياله . وفي بعض البلدان يكفرون كل من لم يحضر المولد أو كل من لم يقم عند ذكره .

ومن طبيعة البدعة التمدد والتفجر ، ثم التنقل من بلد إلى بلد ، بحيث تشتهر وتنتشر والدفع أيسر من الرفع ، ونحمد الله أن كنا في عافية من هذه البدعة ، فلا تفعل في بلداننا ، لأنها من محدثات الأمور التي نهى عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

ومثله ما يفعله الناس في رجب باسم الإسراء والمعراج ، فكل هذه من البدع التي يقود بعضها إلى بعض ، حتى تكون الآخرة شر من الأولى وتكون في كل عام شر من الذي قبله .

فهذا الكاتب لمّا بالغ في تأييد بدعة المولد واستباح من أجلها تحريف الآيات إلى غير المعنى المراد منها ، فقاده غلوه إلى بدعة أخرى ، هي أكبر وأنكر ، وهي الاحتفال بالنعم وجعله واجباً على الناس ، ولم يسبقه إلى القول به أحد قبله ، لأن من طبيعة البدع على اختلاف أنواعها التمدد والتفجر ، ثم الانتشار ، ومن طبيعة نفوس أكثر الناس محبة الباطل وتمركزه فيها ، فقد حفت النار بالشهوات .

فهذا المولد في الأمصار يفعل فيه أشياء من المنكرات ، من ضرب الدفوف والمعازف وشرب الخمور واجتماع الرجال مع النساء ، وغير ذلك من المفاسد ويسندون هذه الأفعال إلى محبة الرسول ، وهي تنافي محبته .

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

إن العبادات الشرعية مبنية على التوفيق والاتباع ، لا على الاستحسان والابتداع ، فكل عبادة لم يتعبدها رسول الله ولا أصحابه ، فلا تتعبدوها ، فإن الأول لم يترك للآخر مقالا فيها يتعلق بشؤون القرب الدينية ، والبدعة الحسنة

إنما تكون في العادات لا العبادات ، لقد علمنا أن هؤلاء الذين يحتفلون بالمولد وينفقون النفقات الكثيرة في سبيله ، أن قصدهم محبة الرسول وتعظيمه بإحياء ذكرى مولده كل عام ، فهذا هو الظاهر من أمرهم .

غير أنه يجب أن نعلم بأن حسن المقاصد لا يبيح فعل البدع وأن المحبة الطبيعية لا تغني عن المحبة الدينية شيئاً ، فهذا أبو طالب عم النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يحب رسول الله أشد الحب ، وقد تربى رسول الله في حجره وبالغ في حمايته ونصرته ، وشهد بصدق نبوته ، لكنه لما لم يطع رسول الله في أمره ولم يجتنب نهيه ولم يتبعه على دينه ، مات على كفره ، ونهي رسول الله عن أن يستغفر له ، وأنزل الله في التعزية والتسلية عن عدم إسلامه قوله تعالى : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » .

ولما ادعى أناس محبة الله ورسوله ، أنزل الله عليهم آية المحبة « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » فكل من ادعى محبة الله ورسوله ولم يوافقه في أمره ولم ينته عن نهيه فدعواه باطلة .

حق الرسول على أمته

إن معنى شهادة أن محمداً رسول الله هي طاعة الرسول فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما عنه نهى وزجر ، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع لا بمجرد الاستحسان والبدع وأن يكثروا من الصلاة والتسليم عليه في كل حالاتهم وسائر أوقاتهم ، فإن الصلاة عليه هي من أفضل القربات وأجل الطاعات ، ومن صلى عليه مرة ، صلى الله عليه بها عشراً ، والصلاة عليه هي دعاء له من أمته ، فقد أمر رسول الله بأن نكثر من الصلاة عليه في الصلاة وخارج الصلاة ، فنقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد . وفي مذهب الإمام أحمد بن حنبل : أن الصلاة عليه ركن لا تصح الصلاة بدونه وعند الأئمة الثلاثة أنها مستحبة وليست بواجبه .

كما أمرنا أن نصلي عليه بعد إجابة المؤذن ، وأن نسأل له الوسيلة ، فقال : إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن ، ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلى عليّ صلاة ، صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة . وعن جابر – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة » رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي .

فالرسول – صلى الله عليه وسلم – أمر أمته بأن يدعوا له مع دعائهم ولا يدعونه من دون الله أبداً ، بل يخلصوا دعاءهم لربهم كله حـــرص منه على قطع مادة دعائه أو التوسل به ، لأن الذي يدعى له لا يدعى من دون الله ، ثم لنعلم أن من يصلي ويسلم على رسول الله وهو بأقصى مشارق الأرض ومغاربها ومن يصلي ويسلم عليه عند حافة قبره إنهما في التبليغ سواء ، لأن الله قد وكل ملائكة يبلغونه كل من صلى عليه من أمته ، فهذا التزاحم عند قبره لا معنى له ، إذ التبليغ حاصل من دونه . وروى أبو داود بسند جيد ، عن أبي هريرة ، قال قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « لا تجعلوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » .

وعن عليّ بن الحسين – رضي الله عنه وعن أبيه وجده – أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – فيدخل فيها فيدعو فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي عن جدي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا عليّ ، فإن تسليمكم عليّ يبلغني أين كنتم » .

فنحن نشهد بالله ، لقد نصح رسول الله أمته وأدى أمانته وأن الحج صحيح بدون زيارة قبره ، وأما حديث « من حج ولم يزرني فقد جفاني » ، فقد اتفق علماء الحديث على أنه مكذوب على رسول الله ، وهو ينافي قوله : « لا تجعلوا قبري عيداً ، أي تعتادون مجيئه وصلوا عليّ ، فإن صلاتكم تبلغني أين كنتم » . وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » أن يتضرع إليه ويسأل كأن يقول : يا محمد اشفع لي ونحو ذلك من وسائل التوسل به .

وعن جبير بن مطعم ، قال : جاء رجل من الأعراب إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : أنا نستشفع بالله عليك وبك على الله . فقال رسول الله : سبحان الله ، سبحان الله ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه » .

وقال : « إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » .

وفي البخاري ومسلم ، أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله والإطراء هو مجاوزة الحد في المدح والثناء .

فقد بلغ ونصح وحذر وأنذر ، والحمد لله رب العالمين وسلام على عباده المرسلين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

في وفاة رسول الله ﷺ

الحمد لله الكريم المنان ، خلق الإنسان من عدم ثم قال له كن فكان كل يوم هو في شأن ، وكل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من قال ربي الله ثم استقام ، وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله ، سيد الأنام ، اللهم صل على نبيك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه البررة الكرام ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن الله — سبحانه — كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هي دار القرار ، فسمى الله الدنيا متاعاً ، والمتاع هو ما يتمتع به صاحبه برهة ، ثم ينقطع عنه مأخوذ من متاع المسافر « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها ، وهو أدل دليل على زوالها فتتبدل صحتها بالسقم ونعيمها بالبؤس وحياتها بالموت وعمارها بالخراب واجتماع أهلها بفرقة الأحباب ، وكل ما فوق التراب تراب .

وهذا الموت الذي يفزع الناس منه والذي أفسد على أهل الدنيا نعيمهم في الدنيا ، ليس هو فناء أبداً ، لكنه انتقال من دار إلى دار أخرى « ليجزي فيها الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » فلا يجزع من الموت ويفزع من هوله إلا الذي لم يقدم لآخرته خيراً ، فهذا الذي يجتمع عليه عند فراقه للدنيا سكرة الموت وحسرة الفوت وهول المطلع فيندم ، حيث لا ينفعه الندم ويقول : « يا ليتني قدمت لحياتي فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد » .

إن الناس في الدنيا بمثابة الغرباء الذين يعرفون بأن لهم داراً غير دار الدنيا فهم يجمعون لها ويعملون عملهم في تمهيد الانتقال إليها ، لأن من قدم خيراً أحب القدوم عليه ، فيحب الموت لمحبته للقاء ربه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، وقد قال الصحابة : يا رسول الله كلنا يكره الموت . قال : « ليس الأمر كذلك ، ولكن الإنسان إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة ، فإن كان من أهل الخير بشر بالخير ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن كان من أهل الشر بشر بالشر ، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه ، مكث النبي أربعين سنة من عمره لم يوح إليه بشيء ، ثم فاجأه الحق بعد الأربعين وهو بغار حراء ، فأنزل الله « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » ، ثم استمر الوحي وتتابع ، فلما كانت السنة العاشرة من الهجرة ظهر له أمارات اقتراب أجله وارتحاله من الدنيا إلى لقاء ربه ، فحج بالناس تلك السنة وأنزل الله عليه وهو واقف بعرفة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » فليس بعد التمام إلا النقص .

إذا تم شيء بدا نقصـــــه   توقع زوال أمـــر إذا قيل تم

وفي يوم عرفة ، أشار النبي للناس في خطبته باقتراب أجله ، فقال لعلي : « لا ألقاكم بعد عامي هذا ألا فلا ترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » فسميت حجة الوداع من أجل أنه ودع الناس فيها وخطبهم الخطبة العظيمة ، فقال فيها « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ، ألا وكل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوع وأول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فلكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ولهن عليكم رزقهن

وكسوتهن وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي إن اعتصمتم به كتاب الله. وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ ، قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فرفع رسول الله بإصبعه إلى السماء يقول : « اللهم اشهد » ــ ثلاثاً ــ رواه مسلم .

وفي وسط أيام التشريق أنزل الله عليه « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » ، ففي هذه السورة إعلام باقتراب أجل رسول الله ، كما فسرها ابن عباس ، معناه : إذا جاء نصر الله يا محمد والفتح يعني فتح مكه ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً طائعين مختارين ، فإنه حينئذ قد اقترب أجلك ، فتأهب للقائنا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ، فكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد نزول هذه السورة لا يقوم ولا يقعد إلا قال : « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي » ولما وصل إلى المدينة خطب الناس ، فقال في خطبته : « إن عبداً خيره الله بين أن يعطيه من زهرة الدنيا وزينتها ما شاء ، وبين ما عند الله فاختار ما عند الله » ، فقام أبو بكر فاعتنقه ، فقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، قال بعض الصحابة : فعجبنا من أبي بكر ، كيف يخبر رسول الله عن رجل خيره الله بين أن يعطيه من زهرة الدنيا وزينتها وبين ما عند الله وأبو بكر يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فكان رسول الله هو المخبر بين البقاء في زهرة الدنيا وزينتها وبين ما عند الله ، وكان أبو بكر هو أعلمنا به » ، وكان رسول الله يعتكف كل سنة العشر الأخيرة من رمضان ، فاعتكف تلك السنة عشرين يوماً ، وكان يعرض القرآن على جبريل كل سنة مرة ، فعرضه تلك السنة مرتين ، وفي آخر شهر صفر في السنة العاشرة من الهجرة ابتدأ الوجع برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ودخل رسول الله على عائشة وهي مضطجعة على حصير وهي تقول : وارأساه ، فقال لها : وددت إن ذلك كان وأنا حي فغسلتك وكفنتك وصليت عليك . فقالت : كأني بك في ذلك اليوم وأنت عروس

ببعض نسائك ، ثم قال : بل أنا وارأساه ، ثم استمر به الوجع ، فدخلت عليه فاطمة ابنته ــ رضي الله عنها ــ فسارها فبكت ثم سارها مرة أخرى فضحكت فقيل لها في ذلك . فقالت : أما إذ سارني فبكيت ، فإنه قال لي : إني سأموت من وجعي هذا فاصبري واحتسبي فبكيت عند ذلك ، وأما إذ سارني الثانية فضحكت ، فإنه قال لي : إنك أول أهــلي لحوقاً بي فضحكت ، فتوفيت ــ رضي الله عنها ــ بعد أبيها بأربعة أشهر ، وكان رسول الله يقول في مرضه : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » وقيل له : إن الناس ينتظرونك . فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس يأبى الله ورسوله إلا أبا بكر ، ولما كشف رسول الله ستر الحجرة ورأى الناس صفوفاً يصلون اشتاق إلى الخروج إليهم ليصلي معهم ، فدعا علياً والعباس فأمرهما أن يحملاه فخرجا به يحملانه ورجلاه تخطان بالأرض، فوضعاه جنب أبي بكر حتى كاد الناس يفتتنوا في صلاتهم من الفرح برؤيته ، ثم رجع إلى البيت فلم يخرج حتى توفي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكان آخر ما نزل عليه من القرآن قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » من آخر سورة البقرة ، وتوفي بعدها بتسع ليال ، لليلتين خلتا من ربيع الأول ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وتوفي أبو بكر وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وتوفي عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وتوفي علي وهو ابن ثلاث وستين سنة ــ رضي الله عنهم ــ وهذا السن هو معرك المنايا . يقول الله « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » ووصى رسول الله في مرضه بثلاث ، فقال : أنفذوا جيش أسامة وأجيزوا الوفد بما كنت أجيزه ، وأخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب . وكان رسول الله يقسم لنسائه في مرضه ، فيأمر من يحمله إلى المرأة في يومها ونوبتها حرصاً منه على العدل والمساواة ، وكان يقول : « أين أنا غداً ، حرصاً على أن يكون عند عائشة ، ولما علم نساءه أنه يحب أن يكون عند عائشة، أذن له في أن يمرض عند عائشة ، فبقي في بيت عائشة فكانت تقول : توفي رسول الله بين سحري ونحري وأخذ يعالج من شدة النزع حتى قالت عائشة : ما كنت أغبط أحداً يهون عليه

الموت بعد الذي رأيت من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان يمسح العرق عن وجهه ويقول : إن للموت لسكرات اللهم الرفيق الأعلى » ، ولما توفي رسول الله اضطرب الناس اضطراباً شديداً ، فبعضهم يقول : توفي ، وبعضهم يقول : لم يمت ، وكان أبو بكر غائباً في عوالي المدينة عند امرأة من نسائه فلما علم بالخبر جاء فكشف عن وجه رسول الله ، فقبله وقال : ما أطيبك حياً وميتاً ، ثم خرج إلى المسجد والناس فيه أوزاع متفرقون يبكون ، فصعد المنبر وأقبل الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، أفإن الله حي لا يموت ثم قرأ « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الشاكرين » . قال عمر : فلما تلى هذه الآية انقطع لها ظهري حتى كأني لم أسمع بها قبل اليوم وتيقنت أن رسول الله قد مات ولم يبق في المدينة رجل ولا امرأة إلا ويتلو هذه الآية ، وكان رسول الله قد جهــز جيشاً ، فأمر عليهم أسامة بن زيد ، وكان عمر بن الخطاب في جملة هذا الجيش ، فنزلوا بالجرف بالقرب من المدينة ينتظرون حالة رسول الله ، وهل يبرأ من مرضه ، فلما توفي وقع الاضطراب في المدينة ، حيث ارتدت العرب عن الدين ، وقالوا : إنه لو كان نبياً لم يمت ، فجعل الصحابة على سكك المدينة رجالا يحرسونها ، فلما اشتد الأمر بهم جاء الصحابة إلى أبي بكر ، وطلبوا منه أن يرد إليهم جيش أسامة ، ليتقووا به على دفاع المرتدين ، فقال أبو بكر: والله لا أحل لواء عقده رسول الله حتى ولو رأيت نساء رسول الله تخطف من بين أيدينا . فقالوا : أما إذ أبيت فآذن لعمر أن يرجع إلينا . فقال : أما عمر وحده فلا بأس ، فمضى أسامة بجيشه في سبيله ، فكان في جيشه البركة والعز والنصر للمسلمين ، فكانوا لا يمرون بأحد من المرتدين إلا ردوهم إلى دينهم ، ثم إن جماعة الصحابة اشتغلوا بعقد البيعة حرصاً على حفظ البيضة وجمع شمل المسلمين ، فبايعوا أبا بكر طائعين مختارين ، وقالوا : رضيك رسول الله لديننا أفلا نرضاك لدنيانا

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قال لهم : « يأبى الله ورسوله إلا أبا بكر » ، وفي اليوم الثالث من موته أخذوا يشتغلون في تجهيزه ، فتولى تغسيله علي والعباس ـ رضي الله عنهما ـ وقالت عائشة : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسل رسول الله إلا نساءه ، لكون المرأة يجوز لها أن تغسل زوجها ، كما يجوز للزوج أن يغسل امرأته ، وبعد الفراغ من تجهيزه ، قدموه للصلاة عليه ، فصلى عليه الرجال أولاً ، ثم صلى عليه الغلمان ، ثم صلى عليه النساء ، وكان قد قال لهم : أنه لم يمت نبي إلا دفن في المكان الذي توفي فيه ، فدفن في بيت عائشة ، ثم توفي أبو بكر بعده ، فدفن بجواره ، ثم توفي عمر ، فطلب من عائشة أن تسمح له بأن يدفن مع صاحبيه ، فسمحت له بذلك ، وكانت عائشة قد رأت في منامها أنه سقط في بيتها ثلاثة أقمار ، فوقع تأويل رؤياها بذلك ، وجاءت التعزية : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته إن في الله عزاء من كل فائت وخلفاً من كل هالك ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا ، فإنما المصاب من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فهذا ملخص وفاة رسول الله ، وأخبر أن أعمال أمته تعرض عليه فيسر باستقامتهم ومحافظتهم على طاعة ربهم ، ويسؤوه مخالفتهم ومعصيتهم لربهم ، ونعوذ بالله من أعمال تخزى بها عند ربنا ونبينا ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

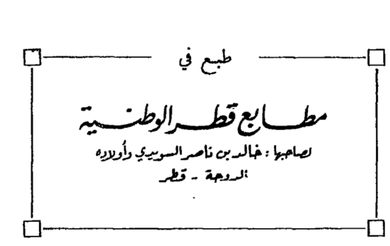
حرر في ١٨ من ربيع الثاني سنة ١٣٩٦هـ .

المحتويات

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة



طبع في

مطابع قطر الوطنية

لصاحبها : خالد بن ناصر السويدي وأولاده

الدوحة - قطر

مطابع قطر الوطنية

